اقرأ

سلسلة ثقافية شهرية

تصدر عن دار المعارف

[١٠٨]

رئيس التحرير

إسماعيل منتصر

بطاقة الفهرسة
إعداد الهيئة المصرية العامة لدار الكتب والوثائق القومية
إدارة الشئون الفنية

العقاد، عباس محمود، ١٨٨٩ - ١٩٦٤

سارة/ عباس محمود العقاد. - ط ٠٦ - القاهرة: دار المعارف، ٢٠٠٨

١٧٢ ص، ١٦ سم. - (اقرأ، ١٠٨)

تدمك ٠ ٧١٥٧ ٠٢ ٩٧٧ ٩٧٨

١ - القصص العربية
(أ) العنوان
(ب) السلسلة

ديوى ٨١٣

رقم الإيداع ٧٩١٥ / ٢٠٠٨ ١/ ٢٠٠٧/٥٠

تنفيذ المتن والغلاف
بالمركز الالكتروني
دار المعارف

الناشر : دار المعارف - ١١١٩ كورنيش النيل - القاهرة ج . م . ع .

هاتف: ٢٥٧٧٧٠٧٧ — فاكس: ٢٥٧٤٤٩٩٩ — *E-mail: maaref@idsc.net.eg*

عباس محمود العقاد

سارة

الطبعة السادسة

دار المعارف

نائب رئيس التحرير
منى خشبة

مدير التحرير
كريمة متولى

مدير فنى
شريفة أبو سيف

تصميم الغلاف
شريف رضا

اقرأ

إن الذين عنوا بإنشاء هذه السلسلة ونشرها، لم يفكروا إلا في شيء واحد، هو نشر الثقافة من حيث هي ثقافة، لا يريدون إلا أن يقرأ أبناء الشعوب العربية. وأن ينتفعوا، وأن تدعوهم هذه القراءة إلى الاستزادة من الثقافة، والطموح إلى حياة عقلية أرقى وأخصب من الحياة العقلية التي نحياها.

طه حسين

دار المعارف

أحلام شهرزاد – العدد الأول من سلسلة اقرأ الشهرية صدر عام ١٩٤٣

مقدمة
أو قصص عن قصة

لم كتبت سارة؟ ولم كتبتها على هذه الطريقة؟ ولم اخترت الفتاة أجنبية أو إسرائيلية؟ وهل هى واقعية أو خيالية أو مزيج من هذا وذاك؟

أسئلة سئلتها كثيرا ولا أزال أسألها منذ ظهرت «سارة» فى طبعتها الأولى. فربما كانت الإجابة عنها أصلح شىء لتقديم طبعتها، لأنها تسوقنا إلى قصص تعنى من قد عنوا بالقصة نفسها، وأحبوا أن يعرفوا شيئا عنها بعد أن عرفوها.

* * *

نويت أن أكتب قصة «سارة» لأنها تجربة نفسية لابد أن تكتب فى يوم من الأيام، وإن كنت قبل كتابتها قد أرجأتها من حين إلى حين، متخيرا للوقت، ملاحظا ما تقتضيه دواعى التفصيل والإجمال.

ثم شرعت فى كتابتها لأن مجلة «الدنيا» التى تصدرها دار الهلال قد اقترحت علىَّ الكتابة فى موضوع يقارب هذا الموضوع. فنشرت فيها ثلاثة فصول على ما أذكر، ثم عاقنى عن مواصلة الكتابة عائق عارض

فأمسكت إلى أجل، ثم فرغت لإتمامها بعد برهة فأتممتها على الصورة التى ظهرت بها: رواية تحليلية أو تحليلا روائيا كما يشاء من يشاء.

سبب بسيط ظاهر لا يحتاج إلى شرح آخر، ولكنه على بساطته وظهوره لم يمنع قائلا أن يقول- أو قائلين أن يقولوا- ما بدا لهم من أسباب لم تخطر لى على بال، فيها بعض الفكاهة لأنها تصلح للتسلية، وفيها بعض الجد لأنها تصلح للدراسة، وحسبها أنها «ظاهرة» من الظواهر التى تعرض فى عالم الأدب عندنا لتكون موضع دراسة وموضع تأمل وتعقيب.

كتبت هذه القصة- فيما زعم بعضهم- لغير شىء إلا أننى أردت أن أجرب قلمى فى القصة!!

لهذا السبب وحده كتبت سارة! وهو سبب قد يصح أو يكون له نصيب من الصحة لو أننى أعتقد أن القصة ضريبة على كل كاتب، أو أعتقد أن القصة أشرف أبواب الكتابة فى الفنون الأدبية، أو أعتقد أننى مطالب بالكتابة فى كل موضوع تجول فيه أقلام المؤلفين.

ولست أعتقد شيئا من ذلك، فإن القصة عندى لا تعدو أن تكون بابا من أبواب الكتابة الأدبية ليست بأشرفها ولا بأوجبها على الكاتب. إن أحسن مؤلفها فهى حسنة، وإن أساء وأسف فهى من أسوأ المكتوبات وأدناها إلى الضعة، وقد جعلها الشيوعيون فى العصر الأخير أشرف أبواب الأدب لأنهم يحسبون الأدب مسألة طبقة ويحسبون القصة أوفق الموضوعات الأدبية لطبقة الدهماء، ويحسبون أنهم يخدمون الدهماء

بهذا الظن الخاطئ وهم فى الواقع أعدى أعدائهم، لأنهم يسجلون عليهم أنهم لا يرتقون إلى ما فوق الحكايات، ولا يتطلعون إلى مطالعة إلا أن تكون من هذا القبيل.

ولج آخرون فى الإغراب فقالوا غير ما قال هؤلاء، أو جاءوا بصورة أخرى مما قال هؤلاء...

قال: إننى كتبت «سارة» لأن القصة أروج وأجدى. ولا جناح فى ذلك لو صح على النحو الذى زعموه. ولكنه غير صحيح. لأننى طبعت من «سارة» أقل مما طبعت من بعض كتبى الأخرى، ولأننى كتبت سارة وكتبت غيرها فى وقت واحد، ولأننى خسرت من جراء «سارة» مبلغا من المال لا يستهين به أولئك الذين يذكرون الرواج والجدوى... ولو ضمنوه لباعوا فى سبيله كل كتاب يكتبونه، أو يؤمنون بما فيه!

فبعد أن شرعت فى إتمام سارة ببضعة أيام دعانى الأستاذ عبد القادر حمزة باشا رحمه الله إلى استئناف الكتابة فى البلاغ وعزز الدعوة أناس من الكبراء والعظماء، ويعلم زملاء غير قليلين فى «البلاغ» أننى قبلت الدعوة واستمهلته شهرين ريثما أفرغ من إتمام «سارة» وما عندى من بقايا المذكرات الأدبية، لأننى قدرت أن العودة إلى ميدان السياسة تشغلنى عن الكتب وتهيئة الموضوعات التى تدرس للتأليف فيها. فآثرت إتمام الرواية على المرتب المضمون، وليس للرواية ربح يساويه، بعد أن تنفد فى شهور أو سنوات.

قصة من قصص سارة أحببت أن تُعلم، لأنها فى بساطتها وظهورها كقصة السبب الذى دعا إلى كتابتها على اقتراح مجلة الدنيا!.. ومادام حب الانتقاص والتشويه غريزة فى بعض الناس، فليكن من الحق أن يلقموا حجرا حيثما كانت الحجارة بهذا اليسر وبهذا الإفحام.

* * *

أما الطريقة التى اخترتها لسرد القصة فهى طريقة تلائمها وتصلح لأدائها، ولست أعرف أن للقصص طريقة لن تعدوها، أو أن أحدا من الناس فرض على سائرهم أن يسردوا حكاياتهم كما يحكيها. فإنما حق القارئ على صاحب القصة أن يبلغه أثرها وفحواها ويبثه وقائعها وما يتخللها من شعور وفكرة. فإن فعل فلا عليه بعد ذلك أن يبدأها من النهاية أو يقتضبها من وسط الطريق أو يسوقها مساق التحلل أو التركيب أو يعنى فيها بالشخوص فوق عنايته بالحوادث أو بالحوادث فوق عنايته بالشخوص، فهذه كلها من حق الكاتب إذ يؤدى للقارئ حقه، وليس للنقد بعد ذلك موقع بين الكتاب والقراء، إلا أن يكون موقع الملاحظة والتعقيب.

* * *

وقد خطر لكثير من القراء- بل القارئات على الأصح- أن يسألن: لم كانت فتاة القصة أجنبية أو إسرائيلية ولم تكن مصرية؟

فالجواب الموجز عن هذا السؤال أن فتاة القصة لم تكن أجنبية ولا إسرائيلية، وإنما كان اسم «سارة» على عمومه بين الأديان- بمثابة الترجمة لاسمها كما كانت أسماء شخوص القصة الآخرين، ونعنى بالترجمة هنا معنى آخر غير معناها المشهور فى النقل بين اللغات، فهو هنا يعنى المشابهة بالدلالة أو بالوزن أو باقتران الأسماء على الألسنة والأسماع!

فهل هى واقعية إذن أو هى مزيج من الواقع والخيال؟

ذلك سؤال يستتبعه ما تقدم، وجوابه الموجز أن القصة الموضوعة لابد أن تحدث أو تقبل الحدوث، وقصة سارة لا تعدو شرطا من هذين الشرطين، وحسبنا منها هذا. فليس فى الزيادة ما يفيد.

لكنى لا أضن على قرائها ببعض التسلية التى يسفر عنها امتحان التخمين فى أناس من عشاق الفضول.

فسارة موصوفة فى هذه الصفحات بكثير من التفصيل، وواضح من فصول القصة أنها تحسن لغات غير العربية، وعلى غلاف القصة أنها طبعت قبل خمس سنوات، وأنها تشرح علاقة استمرت سنوات وانقطعت سنوات أخرى، وكان عمر سارة عندما التقى بها صاحبها خمسا وعشرين سنة أو قرابة ذلك. فإذا حسب عمرها الآن بهذا الحساب الذى لا شك فيه فهو لا يقل عن الأربعين! وإلى جانب هذا التعيين فى السن تعيين آخر فى الصفات هو أيضا لا شك فيه.

ومـــع هذا ينفتح باب التخمين عند أناس فـإذا هم يتجاوزون حدود الأحاجى فى أبعد الشـطحات والمفارقـات، كالذى تلقى عليه «أحجية» فى الطير فيذهب بالظن إلى أعماق البحار.... وأقل فرق يرتضيه هو فرق عشـرين سـنة فى العمر، وفرق الطوال والقصار، وفرق سارة وسارى، وفرق أوروبا وغيرها من القارات!!

فليـس من الرفق أن نغلق باب هذه الأحجية أو باب هذه التسـلية، وشكرى للمخطئين هنا أوجب من شكرى للمصيبين، وأوجب من كليهما شـكرى للقراء الذين عنوا بالقصة على أنها فن من فنون الأدب ولون من ألوان الحياة.

عباس محمود العقاد

أهو أنت؟

مضت خمسة أشهر قبل أن يجرؤ على عبور ذلك الشارع مشيا على قدميه. وليس الشارع مقفرا أو مخيفا، لأنه محاط بالعمار، مزدحم فى جوانبه بالسابلة والسكان. وليس هو بالبعيد عن طريقه، لأنه يوشك أن يحتاج إليه فى ذهابه وإيابه إلى حيث يقيم فى ضاحية المدينة. ولكنه كان شارعا يلتقيان فيه عند ذهابهما إلى دار الصور المتحركة، ثم يلتقيان فيه عند خروجهما منها.

وكانا يجلسان إذا دخلا تلك الدار فى مكانين متجاورين، ولكنهما لا يدخلان إليها ولا يخرجان منها متجاورين. بل يرسل هو إلى نافذة التذاكر من يبتاع التذكرتين لكرسيين فى مكان قلما يتغير. ثم يلقاها فى ذلك الشارع، فتأخذ إحدى التذكرتين وتسبقه إلى الدار، ويظل هو بضع دقائق فى بعض الأندية العامة، ثم يلحق بها إلى المكان المعروف.

وكان من عادتها أن تقارن بينها وبين بطلة الرواية إذا أحست منه إعجابا بها أو ثناء عليها. وتسأله فى ذلك أسئلة ذكية خبيثة لا تسهل المغالطة فى جوابها، إلا على سبيل المزاح والمداعبة.

سألته مرة وقد لمحت منه اهتماما بالروايات التى تظهر فيها إحدى الممثلات: إذا سمحت لك هذه الممثلة بقبلة... أتقبلها منها؟.

فعلم أن الجواب الجد عن هذا السؤال غير سليم العواقب، وعمد إلى العبث والمراوغة، قال: وهل من الأدب أن أرفض قبلة تعرضها سيدة؟

قالت: دعنا من حديث الأدب فما عن هذا أسأل... أنا أسألك عن دخيلة نفسك، أسألك عن رغبتك... فهل ترحب بتلك القبلة إذا وجدتها؟

فعاد ثانية إلى العبث والمراوغة. وطفق يقول: أما إن كنت أمثل معها على الستار الأبيض فأنت تعلمين أن القبلة لا غنى عنها... تلك واجبات الفن يا صديقتى، ولا تتم الفنون إلا ببعض التضحية!

قالت: أو تضحية هى؟

قال: نعم كل قبلة غير قبلة المرأة التى يحبها الرجل هى تضحية. بل هى- إن شئت- سخرة!

فرضيت وهى تعلم أنه يغالط ويراوغ فى الجواب، وأحبت أن تشعر أنه لا يقبل تلك الممثلة الجميلة إذا أتيح له تقبيلها... وهى تعلم أنه لا يقول صدقا ولا يعمد إلى الصراحة!... وقالت وهى تضحك: لقد نجوت! إن قبلة تتمناها لهى خيانة فى الضمير، ولا فرق بين خيانة الضمير وخيانة الواقع، إلا التنفيذ!

وإذا خرجا للرياضة بعد الفراغ من الصور المتحركة فكثيرا ما كانت تمد يدها إلى مفكرته فى جيبه فتكتب فيها كلمة تناسب رواية الليلة، أو تناسب الرياضة التى خرجا لها، إن كانت لها مناسبة ملحوظة.

فكتبت مرة وقد شهدا رواية المرأة المترجلة: «هل أعجبتك رواية المرأة المترجلة؟ أما أنا فسأكون لك امرأتك فقط». وكتبت مرة أخرى وقد شهدا رواية المرأة المحتالة: «أرجو ألا ترى المرأة المحتالة إلا فى السينما. أما فى الحياة فحسبك المخلصة... فلانة».

وربما مضت سنة أو سنتان على مشاهدة الرواية وهى تذكر كل كلمة قالها فى التعليق عليها أو فى انتقادها. فاتفق يوما أنهما حضرا الصور المتحركة فى إحدى الضواحى الصيفية، حيث تعرض المشاهد القديمة بعد سنة أو سنتين من عرضها فى المسارح الكبيرة، وشهدا هناك رواية هزلية عن صياد فاشل يستعيض من فشله فى الصيد بالمبالغة فى الوصف والحكاية، فكان يرفع البندقية ويطلق الطلقة الواحدة فى اتجاه واحد فيقع الطير على يمينه وشماله من جميع الجوانب، ويظل يتساقط من هنا وهناك إلى ما بعد إطلاق البندقية بلحظة غير قصيرة؛ فقال لها: أليس الأحسن والأبرع أن يسقط هذا الطير مشويا على الأطباق؟

فضحكت طويلا وقالت: أتذكر أنك قلت هذه الكلمة بعينها عندما شهدنا هذه الرواية فى البلد للمرة الأولى؟!

ولا يفدر أن يسمع منها أثناء التمثيل كلمات سريعة وتعليقات مبتدرة تكشف بها- على غير قصد منها- عن أعمق أعماق المرأة، وتهزأ فيها بالرياء الأنثوى الذى يبدو فى خجل المرأة وامتناعها.

من ذلك أنهما شـهدا رواية من روايات الثـورات يبدو فيها طريدا جريحـا مهدد الحياة بجراحـه ومهدد الحياة بمطـاردة أعدائه، وقد لاذ بأحـد البيوت فأكرمه أهل البيت وكتمـوا أمره، وتعهدته بالعلاج فتاة فيما دون العشـرين من العمر سليمة القلب وسيمة الطلعة ممشوقة القوام. فمالت إليه شـفقة ثم مالت إليه حبا، ثم تمالك نفسـه بعد طول العلاج، حتى انفردا فى بعض الجلسـات فبلغ من سرورها به وسروره بها أن نظر إليهـا ونظرت إليه، وعيونهما تومض بالمحبة، ثم اعتنقا فى قبلة طويلة جارفة...

وكان بـين المتفرجين على مقربة منهما سـيدة فـى نحو الأربعين، وفتيـات ناهـدات فى مثل سـن الفتـاة! فصاحت السـيدة: انظرن إلى الخائـن!... إنه خدعها! فمالت صاحبتنا وهمسـت سـاخرة: أتقول خدعها؟ إنه كافأها أحسن مكافأة يستطيعها!

* * *

وهكذا كانت دار الصور المتحركة عندهما شيئا أكثر من ملهى الفراغ وموعـد اللقـاء: كانت محور حياتهما الغراميـة، وهل كانت لهما من حيـاة فى ذلك الحين غـير الحياة الغرامية؟ وكانـت ملتقى الذكريات والعواطف ووسـيلة التقارب والتفاهم فيما يشـعران به وما يلاحظانه من أحوال المحبين والمحبات، وكانـت ذخيرة من المناظر التى يقترن

كل منظـر منها بكلمـة، أو بخاطرة، أو بمناقشـة، أو بأمنية يملكان تحقيقها، أو بأمنية يكتفيان منها بالحلم والخيال.

فلمـا وقعت الجفـوة بينهمـا، وانقطـع طريقهما إلى تلـك الدار، كانـت كل خطوة فى تلك الطريق كأنما تثقـل النفس بآكام فوق آكام من الذكريـات والآلام. وكانت كل زاوية من الزوايا كأنما تخفى فيها رصدا من الشياطين الثائرة والعقبان الكاسرة، وكان اجتناب تلك الطريق أسلم الأمور وأهون المحذورات.

ثم مضت الأشـهر وخيـل إلى صاحبنا أنه لم يعد يخشـى أو يذكر، فاجـترأ على العبور بالطريق مرة بعد مـرة، وعبر بها ثلاث مرات أو أربعا على الأكثر، وكانت الرابعة هى التى فوجئ بها هذه المفاجأة التى لم تكن فى الحسبان.

إنه لم ير صاحبته بعد اللقاء الأخير فى أثناء تلك الأشهر الموحشة؛ لأنـه اجتنب الأماكن التى عسـاه أن يراها فيهـا، ولزم بيته فى معظم الأيـام وقـد علم أنه ما من مرتاد أو متنزه يقصـد إليه إلا وهو خليق أن يعاوده ببعض الذكريات، إن لم يعاوده ببعض ما يسوؤه أن يراه.

فلما عبر الشـارع المهجور تلك الليلة مطرقا كعادته حين يسير على غير قصد إلى مكان معلـوم- سمع من جانبه صوتا يناديه: صوتا يعرفه بـين ألف صوت، بل بين جميـع ما خلق الله من الأصـوات والأصداء: صوتها هى بعينها يهتف به: أهو أنت؟

أهو أنت؟ سمع هاتين الكلمتين فأحس لهما صدى كانفجار الهاوية تحت السفينة فى البحر اللجى من أثر عاصفة أو زلزال، وقبل أن يجيب عن ذلك السؤال الذى لا يحتاج إلى جواب، وفى أقل من رجع الصدى بل فى أقل من اللمحة الخاطفة التى انقضت بين ارتفاع رأسه إليها والتقاء نظره بنظرها- هجم على نفسه طوفان من الدوافع والهواجس التى لا يوجد لها اسم فى اللغات الإنسانية؛ لأن اللغات الإنسانية لا تستطيع أن تضع اسما لألوف من النقائض والمفاجآت التى يجتمع فيها الرعب والسرور والشوق والنفور والهيام والاشمئزاز، وتريد فيها النفس أن تقف وتريد فيها القدم أن تسير، بل تريد فيها النفس أن تقف، لأنها لا تقوى على أن تريد.

ولو أنه رآها عند أول الطريق قبل أن يفاجئه من صوتها ذلك الهاتف الطارئ- فلعله كان يعرف ما هو مقبل عليه ويستعيد فى نفسه شيئا من ذلك العزم الذى أعانه على القطيعة، وأمده بدواعى الإصرار عليها، كلما جنح إلى اللين والإغضاء والمغالطة.

ولكنه أخذ على حين غرة، فوقف هنيهة لا يدرى ما يقول.

ووقفت هى أيضا لا تدرى ما تقول، وكأنما ندمت على الكلمة لأنها لم تسمع لها جوابا سريعا، ولم تزل تخشى ما يجىء به ذلك الجواب. فأومأت إلى مركبة قريبة واقفة بين مركبات كثيرة، وإذا بهما يسيران معا إلى تلك المركبة، فتجلس فيها ويجلس هو إلى جانبها وهى تقول: هذا خير من أن يرانا الناس مشدوهين كالصنمين!

والواقـع أن النـاس التفتـوا فعلا وجعـل بعضهم ينظـر إلى بعض ويتهامسون. فقال لها: صدقت.... هو خير!

ثم صاح الحوذى: إلى أين يا بك؟

فلما لم يسمع ردا من «البك» عاد يسأل: إلى أين يا سيدتى؟

فهمست صاحبتنا: ألا تقول للحوذى إلى أين؟

فأجابها وهو يوجه خطابه إلى الحوذى: إلى حيث تشاء!

وكأنما ندمت مرة أخرى على الركوب، وعلى اللقاء، وعلى السـؤال. لأنهـا كانـت تنتظر من صاحبها لهفـة على مكان مـن أماكن الرياضة المعهودة التى ألفا أن يترددا عليها.. فجلست صامتة.

وجلـس كذلك صامتا. وطـال الصمت.. لا لأنـه كان يريده، أو لأنه كان يأبـى الـكلام، ولكن لأنه كان يفتش عن كل كلام فى الدنيا فإذا هو يهرب... أو يستعصى ولا ينقاد.

كان الـكلام الذى يريده هو التواعد إلى غد حيث يلتقيان فى المنزل، وحيث يقولان ويعيدان ويتأهبان للعذر ويتأهبان للملام.

ولكن هذا هو بعينه الكلام الذى كان لا يريده!

يمنعه أن يفوه به مانع الكبرياء، ومانع الخوف من تجديد ما فات، ومانع الشـك فيمن تصاحب وفيما تضمر وفيما عسـى أن تلقى به كلامه فى دخيلة نفسها من الزراية والاستخفاف.

وطال الصمت، وقالت وكأنما تناجى نفسها: يحسن بنا أن نقف هنا للنزول.

واعـترف هو فى طوية ضميره أنه لا يريد أن تنزل قبل أن يقول لها شيئا أو يسمع منها شيئا. واعترفت هى فى طوية ضميرها أنها لا تريد أن تنجـز تهديدها ولا تريد أن تبرزه فى صورة التهديد. لأنها تعلم أن جواب صاحبها الوحيد على التهديد هو التحدى... أو هو تركها تنزل وحدها، وإن كان يود استبقاءها فى الحقيقة!

ولعلها أخطأت فى حسـابها هذه المرة، فـإن صاحبها بعد أن جلس إلى جانبهـا، وبعـد أن أحس حرارة جسـمها، وبعـد أن لمس بضاضة معاطفها، وبعد أن تلقى أنفاسها على صفحة خده وهى تميل إليه تنتظر كلامه، وبعد أن غاص فى تلك الغيبوبة التى اسـتنام إليها كما يستنيم السـاهر بعيد العهد بالنوم إلى أول ضجعة على الفراش، وبعد أن أصبح هـو وعزيمته شـيئين متعزلين بينهما من البعد مـا لا ينجع فيه دعاء ولا اسـتحضار... بعد هذا كلـه لعلها كانت لا تخاطر كثيرا إذا هددته بالنزول من المركبة واقتضاب ذلك الصمت العقيم.

ولكنهـا لم تهدد ولم تنزل... بل صاحت غاضبة: ما بالك لا تنطق؟ أمعقود اللسان وأنت لك لسان كالثعبان؟

وربمـا أحب أن ينفى عنه تهمة الاضطراب والحصر والضيق بالكلام فى مفاجأة اللقاء، فقال لها وهو يتلعثم: أين كنت؟

قالت: فى السينما!

قال من حيث لا يشعر بمعنى ما يقول: مع من؟

فأجفلت مقطبة، وأجابته بلهجة فاترة ولكنها مفعمة بالتهكم والتأنيب: أوَ لا أذهب إلى السينما إلا مع أحد؟ ألا تزال فى ضلالك القديم؟

قال: وماذا بدا لى من الهدى الجديد فأعدل عن الضلال القديم؟ ولماذا صرفت كلامى إلى ما فهمت؟ ألا يجوز أن تذهبى إلى السينما مع سيدة؟ فلماذا تستغربين السؤال؟

قالت: لأنك غريب فى هذه الليلة. ماذا أقول؟ لأنك غريب فى كل حين!

ثم اقتضبت على غير انتظار وهى تشيح بوجهها وتهمس بصوت مسموع: هذا شرح يطول، ونحن نهيم فى الشوارع على غير مقصد... فأولى بنا أن نرجئ الحديث إلى وقت آخر. ألا ألقاك غدا فى المنزل؟... غدا فى الساعة الخامسة، أسمعت؟

قالت ذلك وهى تستوقف الحوذى وتهم بالنزول عند محطة الترام.

وإنها لتنزل من المركبة إذ تعمدت أن تدنو بوجهها من وجهه وتزم شفتيها وتغمض جفونها قليلا وهى تنظر إليه أو تنظر إلى غير وجهه، فقبلها كأنه أداة كهربائية ديس على مفتاحها، وشعر بالندم وشفتاه لا تزالان على شفتيها. ولكنه شعر به وشعر بنفسه فى تلك اللحظة غريقا بعيدا كما يشعر بالجسد الغريق الهامد يراه فى أعماق الأوقيانوس الهدار. وقال وهو أيضا نادم: غدا فى المنزل!

قالت: فى الساعة الخامسة موعدنا القديم!

وافترقا على موعد اللقاء.

موعد

فارقته

على موعد اللقاء فى الساعة الخامسة «موعدنا القديم!»

وكأنمـا كانت كلمة الموعد «القديم» وحدها طلسـما سـاحرا نقلـه مـن حالة إلى حالـة، وأخرجه مـن الحذر والـتردد إلى الراحة والاستبشار... فاحتجبت عنه صفحة الشكوك والآلام والمنغصات ولم ير أمامـه إلا «الموعد القديم» بل «المواعيـد القديمة» فى كل يوم، وما كانت تحتويه من سرور ومتعة وصفاء، وذكريات لا تزال مرتسمة فى الذهن، سارية فى الجوارح كأنها وظيفة من وظائف الأعضاء.

وانطلق من المركبة خفيف الخطى موفور النشاط يكاد لا يعرف أحدا، ويكاد لا يعرفه من كان يراه قبل ذلك بساعة أو أقل من ساعة.

وأول ما خطر له أن يدخل فى ذلك المساء دار «الصور المتحركة» التى كانا يلتقيان فيها معظم الأوقات، كأنها باب كان موصدا أمامه ففتح على مصراعيه، أو فاكهة ممنوعة رفع عنها المنع والحرمان.

ومن عجائب العاطفة الإنسـانية أنها أبدا مولعة بالمراسم والشعائر، فلا تسـتولى على النفس حتى ترسم لها «طقوسا» وعادات تذكر الإنسان بطقوس العقائد والعبادات فلما خطر له أن يقصد إلى دار «الصور المتحركة» أو إلى ذلك «الحرم» الذى كان ممنوعا حتى ذلك المساء- لم يكتف بتذكرة

واحدة. بل طلب لـــه تذكرتين اثنتين، وهو لا ينوى أن يصطحب أحدا، ولو جاءه أحد يصطحبه لفر منه كما يفر المرء من غريم.

وقضى الوقت الباقى إلى الســاعة التاسعة فى قلق واشتياق كأن موعد التمثيل هو موعد اللقاء المنظور.

ثم بــدأ عرض الصور وهو يزعم لنفســه أنه يشــهد الرواية ويتتبع الممثلين والممثلات، وليس فى خلده من ذلك شــىء إلا كما يرى الناعس المهــوم ما حوله من الأشــباح، أو يســمع ما حوله من الأصــداء... كل ما يثبت فى خلده منها أنها أشباح وأنها أصداء!

ثم جاءت فترة الاســتراحة فإذا بالفتى الذى يبيع هناك بعض الحلوى والمرطبات مقبل عليه فى دهشة واستفهام يسأله: أكنت مسافرا يا بك؟ وقبل أن يسمع الجواب أسرع فقال: إن السيدة كانت هنا فى حفلة الغروب؟

وإذا بصاحبنا يسأله وهو لا يقصد السؤال، ولو فكر فى سؤاله قبل أن يلفظ به لكتمه وأخفاه: أكانت وحدها؟

وخيل إليه أنه يلاحظ فى نظرات البائع ولهجته تلميحا خبيثا يقول له ما لا يريد أن يعرفه، ولا يريد أن يجهله فى الوقت نفسه... فسلبته تلك الملاحظة كل طمأنينة إلى ما ســيقوله البائع من خبر مقبول أو خبر مرفوض، وود لو أنه يسكت فلا يجيب بشىء.

ولكن البائع لم يزد على أن هز رأســه وقــال: لا أدرى... كانت إلى جانبها سيدة... ولعلها كانت معها.

فاندفع من صاحبنا سؤال آخر كما اندفع السؤال الأول وهو يغالط نفسه، ويحسب أنه يتهكم أو يريد من البائع أن يحسبه متهكما غير جاد فى مطاولة الحديث: جانبها؟ أى جانب؟ إن للإنسان جانبين لا جانبا واحدا كما تعلم.

وهنا ظهر من البائع الخبيث أنه فهم كل ما هنالك من الشك والاستطلاع. فقد عودته صناعته أمثال هذه المواقف وأمثال هذه الأسئلة وأمثال هذه الشكوك. فلم يفته أن «البك» يستطلع ويرتاب... ومن يدرى؟ فلعله كان يرى بعينه ما يدله على أن البك جدير بالاستطلاع والارتياب!

فتمهل قليلا وقال: «كان إلى جانبها الآخر هذا الممر.. وأشار بيده إلى أحد الممرات التى بين الصفوف.

فارتفع كابوس ثقيل عن صدر صاحبنا، وأحب أن يعتقد أن كلام البائع خليق أن يزيل من نفسه جميع الشكوك، لا مجرد الشك الذى خامره عن زيارة السيدة لدار الصور المتحركة فى ذلك اليوم.

إلا إنها طمأنينة عاجلة لم تلبث أن ذهبت كما جاءت فى طرفة عين، وإذا صاحبنا يناجى نفسه ذلك النجاء الذى كان غائبا عن خاطره منذ فترة وجيزة: يا عجبا! إنى لأجتنب هذه الدار كأنها تجمع شياطين الأرض كلها فى حيز واحد، وهى تزورها ولا ترى فيما كان بيننا من القطيعة موجبا لاجتنابها... لو كان قلبها خاليا من هوى آخر لما استطاعت ذلك ولفعلت كما كنت أفعل أنا إلى هذا المساء... والأغلب

الأرجح أن هذا البائع يعلم من خفية الأمر أكثر مما يبوح به أو يريد أن يبوح. ألا ترى إلى غمزات عينيه وحركات وجهه ونغمات كلامه؟ فماذا على المنحوس لو أفضى بما عنده وأراحنا من هذا العناء؟!.

وعاد صاحبنا يتساءل في ضميره: ما عنده؟ أهكذا جزمت سريعا بأن «عنده» سرًّا وأنه يستطيع أن يبوح بأكثر مما قال! ألا يجوز أنه لم يعرف سرًّا على الإطلاق، وأن ما حسبته غمزات ونغمات مريبة في صوته إنما هي عادة هذه الطبقة عند ما تتحدث لرجل عن امرأة، أو عندما تتحدث في كل شيء بين رجال ونساء.

- يجوز!

- لا يجوز!

وهكذا انطلقت في مخيلة صاحبنا أوهام وأشباح لا عداد لها في تلك الساعة القصيرة، ولا يقاس إليها كل ما شهدته تلك الدار من الأوهام والأشباح ومن المبكيات والمضحكات.

ولم ينقذه مما استغرق فيه إلا انتهاء التمثيل وزحام الخروج ولقاء بعض الأصحاب وسهرة كثرت فيها الشواغل وطال الحديث.

ونام تلك الليلة على أثر انفضاض السهرة، وكان يقدر أنه لن ينام.

ولكنه لو قضى الليل كله ساهرا لما عمل في اليقظة إلا الذي عمله وهو نائم: حلم وتفكير وهواجس وخيالات تضطرب وتصطخب ويتبع بعضها بعضا، ولا تميل إلى جانب الرضا لحظة حتى تعود إلى جانب الوسواس والمنغصات.

ثم استيقظ فى الصباح وهو يسأل نفسه كأنما يسأل مخلوقا غريبا يجهل ما عنده من نية وشعور: أتنوى أن تنتظرها فى الموعد؟

فما هو إلا أن وضح السؤال فى خاطره حتى شعر بأنه سؤال غريب يدل على ما وراءه، وحتى بدت له الدهشة من أن تكون هناك نية معقولة غير الانتظار.

وهنا دارت فى سريرة هذا الرجل- هذا الرجل الواحد- مناقشة عنيفة طويلة كأعنف ما تدور المناقشة بين رجلين مختلفين، كلاهما مصر على عزمه وكلاهما يحاول جهده أن يخدع الآخر ويستميله إلى رأيه، وكلاهما يبذل كل ما هو قادر عليه فى هذا الحوار من أساليب الإقناع والإغراء والرياء والتصريح:

- كيف لا تنتظرها؟ أتعطى سيدة موعدا ولا تنتظرها فيه؟ أهذا يليق برجل؟

- ولكنها ليست سيدة كسائر السيدات، ولا زائرة من زائرات المجالس العامة اللواتى تقع بيننا وبينهن هذه التكاليف... إن هذه المجاملات أو هذه القيود لا حساب لها فى العلاقات التى انطلقت من جميع القيود.

- ولكن مم عساك أن تخاف؟ انتظرها وقل لها إنك لا تريد أن تراها بعد هذا الموعد!

- عجبا.. أتجهل ما أخافه؟ أتجهل تلك الآلام التى لا حيلة فيها

لخلــوق ولا تزال تبتدئ من حيــث تنتهى، وتنتهى من حيث تبتدئ، لأنها تبتدئ وتنتهى من الشكوك وليس للشكوك قرار حاسم، ولا مقطع بيقين؟ أتجهل تلك الأشــباح اللئيمــة التى تطل عليك فى أطيب أوقاتك فتنغص عليك كل لذة وتكدر عليك كل صفاء؟

– ولكــن علام كل هذه الشــكوك التى ليس لها مــن أول ولا آخر... اصرفها عنك مرة واحدة وافرض أسوأ الفروض– وقدر أنها تخونك وأنك تلهو بها فى ســاعات فراغك، ولا يعنيك من شــأنها بعد ذلك إخلاص ولا خداع.

– أأنت مخلص فيما تقــول؟ وكيف تنقلب هذه المرأة التى كانت كل نســاء الأرض عندى، وكل ما يخفق له قلبى، فتصبح بين مساء وصباح وهى لهو ساعة ومتعة فراغ؟ أهذا خداع يجوز على إنسان؟ أو تضمن إذا أنا اتخذتها لهوا ومتاعا ألا يتمكن اللهو ويطيب المتاع، وأننا لا ننكفئ بعد أيام أو بعد أســابيع إلى استغراقنا القديم وشكوكنا القديمة وعذابنا الأليم؟ لا لا هذا محال باطل، واســتدراج لا يســتر ما وراءه، وتزوير لا أرضاه.

– لكن الفتاة مليحة مع ذاك.. تصور بضاضتها وهى جالسة إلى جانبك فى المركبة، وأنفاسها وهى تهب على خدك فتسرى فى جميع أوصالك، وقبلتهــا وهى ترتعش على شــفتيك، وحلاوتها وقد زادها النحول فى هذه الأشهر حلاوة على حلاوة، ونحولها نفسه وما ينبىء عنه ويكشفه

لك من المودة والحنين، وتصور ذلك كله بين يديك فى مدى بضع ساعات وأنـت مع هذا تفكر.. تفكـر فيماذا؟ فى نبذ هذه النعمة التى تسـعى إليك، وفى الخوف والجبن والفرار!

– هذا حق كله. إن الفتاة لمليحة ولا نكران... ولكن!

ولكن ماذا يا أخى...! انتظرها والْهُ بها ولا تدعها لغيرك ينال منها ما لا تنال... ولا تستضعف عزيمتك هذا الاستضعاف المهين وأنت رجل ذو عزيمة ومضاء... فإذا عاودتك الشـكوك فأنت قادر على قطع العلاقة بينـك وبينها كما قطعتها من قبل، وإلا فأنت رابح ما اسـترجعت من متعة وسرور.

– عزيمتـى؟ وأين هى عزيمتى إن كانـت لا تنجدنى فى هذا النزاع العنيف؟

– إنهـا تنجدك فى كل حين ولكنـك أنت لا تريدها الآن... لا تريد عزيمـة الجفاء والقطيعة، ومتى أردتهـا غدا فهى حاضرة لديك، وهى فى كل سـاعة طوع يديك... ومع هذا ألا يشـوقك أن تستمع إلى حديثها عن أيام القطيعة بينكما؟ ألا يجوز أن تفسر لك بعض الغوامض، وتريك مـن البواطن ما ينقض الظواهر، وتصف لـك من حالها فى غيابها عنك ما يهمك ولو من باب الدراسة والاستقصاء؟

وتعاقبت الساعات ساعة بعد ساعة فى هذا الحوار الخبيث ولا قرار. وتناول صاحبنا غداءه ولا قرار. وجاءت الساعة الرابعة ولا قرار.

نعم لا قرار فيما يشعر به صاحبنا أو صاحبانا المتحاوران على أصح التعبيرين، غير أن الذى حدث بعد ذلك يدل دلالة لا شك فيها على أن الإنسان يقرر ما ينويه وهو لا يشعر ولا يعترف بشعوره، بل يدل على أن صاحبينا المتحاورين لم ينفردا بالميدان فيما شجر بينهما من عراك عنيف، وإنما كان معهما ثالث لا يدريان به وهما ماضيان فى الإقناع والإنكار.

ففى الساعة الرابعة وبضع دقائق- والحوار على أشده بغير قرار- وجد صاحبنا أنه يلبس ملابس الخروج ويفتح باب حجرته وينحدر على الدرج إلى حيث لا يعلم إلا أنه خارج من المنزل وكفى... ومضى فى طريقه مهرولا كمن يمضى إلى غاية معلومة يخشى أن يفوته لحاقها، وركب سيارة لم يعرف إلى أين تحمله إلا بعد أن استقر فيها، واستطاع أن يمكث حيث ذهب ساعات ثلاثا لا ساعة واحدة ولا نصف ساعة كما كان يتمنى وهو يعالج أن ينجو من الموعد المحدود.

ثم ساوره القلق ودلف إلى منزله بالسرعة التى فارقه بها، واستحالت كل حيرته قبل الخروج إلى حيرة أخرى، أو شوق آخر: وهو أن يعرف ما حدث فى غيابه بجميع تفصيلاته: هل حضرت فى الساعة الخامسة؟ أو حضرت قبلها أو بعدها؟ وماذا قالت حين علمت بخروجه؟ وما بدا على وجهها وهى تصدم بهذه «المقابلة»؟ وإذا كانت لم تحضر فما الذى عاقها عن موعدها؟ ولماذا ضربت ذلك الموعد باختيارها؟! هل ضربته

وهـــى تنوى أن تخلفه من اللحظـــة الأولى، أو طرأ الحائل بعد ذلك على الرغم منها؟

وانـــه ليفتح الباب بالمفتاح الذى فى جيبه ولا ينتظر أن يدق الجرس كعادتـــه فى الأوقات الأخـــرى، إذا الخادم يصادفـــه وراء الباب، وهو يظن- بـــل يرجو- أن يخبره على الفور أن ســـيدة حضـــرت فى غيبته ولا تـــزال فى انتظاره، ويغلو به هذا الوهـــم حتى يعجل بالالتفات إلى حجرة الاستقبال ليلقى السيدة التى تنتظره فيها.

ولم يمض فى ذلك إلا لمحة خاطفة والخادم شاخص لا ينبس بحركة ولا يلوح عليه أنه يحمل خبرا من الأخبار يســـتحق أن يقال، ويساوى تلك اللهفة التى تعتلج فى صدر صاحبنا.

فأسرع صاحبنا سائلا: ألم تحضر إلى هنا السيدة؟ ألم تقل شيئا؟

فقال الخادم فى فتور غريب: لا أعلم!

فانفجر صاحبنا غاضبا: كيف لا تعلم؟ ألم تكن هنا؟ هل هى أوصتك بأن تقول ذلك؟

قـــال الخادم وفـــى صوته احتجاج من يســـتغرب ولا يفقه معنى هذا الاتهـــام: يا ســـيدى قلت لـــك لا أعلم، لأنك نزلت من هنـــا وأنا نزلت وراءك حسب المعتاد فى سائر الأيام.

فاشـــتعل صاحبنا غيظـــا، وهم أن ينقض عليه لـــولا أن هرب الرجل مـــن أمامه فتبعـــه إلى باب الخدم، وهو يعلنه بالطـــرد وألا يعود ليريه

وجهه مرة أخرى. ولم يصفح عنه إلا بعد ثلاثة أيام، وبعد أن شفع له أن الرجل معذور لأنه لم يأمره بالبقاء فى المنزل، وقد أنساه أن يأمره بالبقاء فيه ما كان مشغولا به من حوار.

الشكوك

من النادر جدا أن يتواعد محبان على اللقاء بعد فراق طويل ثم لا يسرعان إلى موعد اللقاء بلهفة شديدة واشتياق عظيم، إن لم يكن حبا أو حنينا أو رغبة فى المتعة والسرور، فعلى الأقل من قبيل الفضول والاستطلاع والرغبة الملحة عند كل منهما فى الوقوف على أخبار صاحبه وأحواله أيام الغياب الطويل: هل أحبت غيره؟ وهل أحب غيرها؟ وهل سلت؟ وهل سلا؟ وبماذا يشعران فى الحب؟ أو ماذا بقى عندهما من الحب القديم؟ وماذا تقول له حين تخلو به؟ وماذا يبدر من كلامه حين يخلو بها؟ وأشباه ذلك من الأسئلة التى يلقيها كلاهما على نفسه ويحسب أنه فى أشد الحاجة إلى الوقوف على جوابها. فربما كان هذا الفضول من أقوى مظاهر الحب، ومن أوثق روابط الاتصال بين كثير من الناس محبين كانوا أو غير محبين. فإذا حدث غير ذلك واجتهد أحد العاشقين أو كلاهما فى اجتناب الموعد المنتظر بعد طول العزلة والجفاء، فلابد أن يكون بينهما شبح قائم من الآلام والأكدار يغطى على جميع المشوقات والمرغبات، ويعكس الفضول والاستطلاع

فيستحيل إلى صمم ونفور، ويصبح كل شيء أهون من تجديد تلك الحالة المكروهة والعودة إلى ذلك الشبح المرهوب.

وهكـذا كانت الشـكوك التى تمثلـت لصاحبنا فانسـاق بغير وعى ولا إرادة إلى اجتنـاب الموعـد، والفرار من المنـزل، والهزء بكل إغراء وتشويق ينبعث فى أعماق حسه من شيطان ذلك الشغف القديم.

كانت شـكوكا مرة لا تغسـل مرارتها كل أنهـار الأرض وكل حلاوات الحيـاة: كانت كأنها جدران سـجن مظلم ينطبق رويـدا رويدا ولا يزال ينطبـق وينطبق وينطبـق حتى لا منفـس ولا مهرب ولا قـرار. وكثيرا ما ينتزع ذلك السجن المظلم طبيعة الهرة اللئيمة فى مداعبة الفريسة قبل التهامها، فينفرج وينفرج وينفرج حتى يتسـع اتساع الفضاء بين الأرض والسماء، ثم ينطبق دفعة واحدة حتى لا يمتد فيه طول ولا عرض ولا مكان للتحول والانحراف: بطل المكان فلا مكان ولا أمل فى المكان، ووجب البقاء حيث أنت فى ذلك الضيق والظلام فلا انتقال ولا رجاء فى الانتقال.

وكان صاحبنا كالمشدود بين حبلين يجذبه كلاهما جذبا عنيفا بمقدار واحد وقوة واحدة، فلا إلى اليمين ولا إلى اليسار، ولا إلى البراءة ولا إلى الاتهام... بل يتساوى جانب البراءة وجانب الاتهام فلا تنهض الحجة هنا حتى تنهض الحجة هناك، ولا تبطل التهمة فى هذا الجانب حتى تبطـل التبرئة من ذلك الجانب. وهكـذا إلى غير نهاية وإلى غير راحة ولا استقرار.

وضاعف هذه الحالة ذكاؤها من ناحية، وطبيعة ذهنه وتفكيره من ناحية أخرى. فهى من الذكاء بحيث لا تقدم على عمل واحد أو حركة واحدة لا يختلف فيها وجهان ولا تقبل التضليل والنكران، وهو فى تفكيره وطبيعة ذهنه يخلق الاحتمالات الكثيرة، فلا يجوز عنده احتمال راجح إلا جاز عنده فى اللحظة نفسها احتمال راجح فى قوته ووزنه وجوازه، ولا يدفع هذا أو ذاك إلا بدافع حاسم لا تردد فيه.. ألم لا نظير له فى آلام النفوس والعقول، وحيرة لا تضارعها حيرة فى الإحساس والتخمين، وأقرب ما كان يشبه به هذه الحيرة حالة الأب المستريب الذى يشك أفجع الشك فى وليد منسوب إليه: هل هو ابنه أو هو ابن غيره؟ ومن هو ذلك الطفل الصغير الذى يتقاضاه حقوق البنوة على الآباء؟ هل هو رمز الحب والعطف والصدق والوفاء، أو هو رمز الخداع والخيانة والاستغفال والاحتقار؟ هل هو مخدوع فى عطفه عليه؛ أو هو مخدوع فى نفوره منه؟ وكيف يفصل فى هذين الخداعين؟ وكيف يطيق الصبر على واحد منهما، وكلاهما لا يطاق؟!

بذلك كان يشبه حيرته وهو يحاول الاستمتاع بعاطفته التى هو مستغرق فيها، ويحاول فى اللحظة بعينها أن يبترها وينساها ولا يعود إليها. ثم لا يدرى فى أى المحاولتين هو مصيب. ولابد أن يدرى، وهيهات لا سبيل إلى الدراية بحال!

وإذا كان بعض الشكوك فى العشق من وساوس الأوهام، فمما لا نزاع

فيــه أن العاشــق أصدق الناس فى شــكوكه حينما يبنيها على أســباب صحيحة وحقائق ملموســة، لأنه يعرف صاحبته معرفة لا يخفى معها عارض من عوارض التغير، ولا لمحة من لمحات العين، ولا همســة من همســات الضمير: يعرف نظراتها ويعرف كلماتها، ويعرف ما تقوله عن ســجية وما تقوله بتكلف واصطناع، ويعرف أن بعض الخشونة أدل على الحب والإخلاص من بعض المجاملة، ويعرف نفسها وكيف تستتر فيها الخفايا، ويعرف جســدها وكيف تختلج فيه النوازع والشهوات. وقد يســأله من يسأله: كيف خامرتك الشــكوك؟ فيضحك من نفسه أن يجيبــه بما يلوح له أو يطلعه على بعض تلك الأســباب، وقد يؤثر فى معظــم الأحيان أن يكتمها ويموهها على أن يفضى بها إلى إنســان كائنا ما كان.

وبعد؛ فهل الغدر فى الحب مستحيل؟

كلا! ليس بمستحيل ولا مما يقارب المستحيل. وليس صاحبنا بالذى يصدق ذلك ولا صاحبتنا بالتى تصدقه وتدعيه.

لقد اعترفت له بعلاقتين ســابقتين: إحداهما متينة مســتحكمة طويلة والأخــرى هوجاء حامية ســريعة، وإحداهما مع كهــل يقارب الأربعين والأخرى مع فتى فى نحو الخامسة والعشرين. وإحداهما صيدت فيها ولكن علــى غير كره منها، والأخرى كانت هــى فيها الصائدة وهى التى نصبت الشباك، فوقع الصيد على عجل وأسرع الحراس المحنقون فأطاروه!

اعترفت له بما كانت تحتال به من الحيل البارعة لتلقى عشيقها الأول، وبما كانت تعمى به على من حولها حتى لا يرتابوا فى أمرها، وإذا استرابوا لم يجدوا عليها ما يثبت الريبة ويقطع اللسان.

واعترفت له بالردود المفحمة التى كانت تدبرها لترغم المتهمين على السكوت. واعترفت له بما تخجل منه المرأة المعتزة بجمالها ومكانتها، فقالت له إنها لم تكن على يقين من حب عاشقها الأول، ولم تكن تبالى أن يحبها اكتفاء بعلمها أنها هى تحبه. وذهبت فى امتهان كرامتها- وهى مغرورة بفتنتها وامتيازها- إلى حد من الخضوع لا يحمد إلا فى التدين والإيمان. فقالت إنها لمحت منه مرة أنه يطيل النظر فى مجلسها إلى امرأة أخرى من صديقاتها... فخطر لها أن تناجى نفسها سائلة: هل يجسر يا ترى على أن يطلب منها الوساطة بينه وبين تلك المرأة فى التقريب والتمهيد؟!... قالت: «فراعنى هذا السؤال، ولكنى عدت فشعرت أنى سأفرح بأن أسره وإن جاء سروره من هذا الطريق المهين!»

ثم انقطعت هذه العلاقة على الرغم منها وعلى الرغم منه، وتمادت بها الوحدة وهى فى دهشة مخيفة، فجعلت تلتفت إلى شاب وسيم من الجيران، ثم تمعن فى الالتفات إليه حتى أصبح انتظاره وهو عائد إلى منزله فى الهزيع الأخير من الليل شغلا لها شاغلا فى اليقظة والمنام، وأخذت تحاسبه فى طويتها على هذه السهرات وتتخيل مع من تكون وكيف تكون...! ويزيدها ذلك لجاجة فى الواقع ولجاجة فى الانتظار،

ولم يلبث هذا الالتفات منها أن أدى إلى الالتفات منه ثم إلى التحية، ثم إلى لقاء جنونى فى المنزل الذى يحيطها فيه الآل والأقربون، وكانت هذه المغامرة العجيبة هى العلاج الباتر لذلك الجنون العجيب!

وراح صاحبنا يذكر كيف اجتمع بها أول مرة، ويذكر ما تحدثت به إليه فى أول رياضة خلوية... لم يطل بهما الجلوس يومئذ حتى استأذنت فى الانصراف لأنها ذاهبة إلى موعد مع صديق، وأرته خطابا من ذلك الصديق يقول لها فيه: إنه يشترى فى ذلك اليوم سيارة ويجب أن يستأنس برأيها وبذوقها فى اختيار اللون والطراز. فأذن لها صاحبنا وهو يقول مازحا: «هذا موعد يرشحك لصناعة مفيدة... فلا تهمليه..».

قالت له فى أول لقاء بعدها: «لشد ما كنت أترقب منك أن تستبقينى وتؤخرنى عن ذلك الموعد... ولو قلت لى: لا تذهبى! لما ذهبت... ولو مزقت الخطاب أو خطفته من يدى لجزيتك على صنيعك أحسن الجزاء».

وكانت تحب الضحك وتفطن إلى الفكاهة وتضحك أحيانا حتى تشرق عيناها الواسعتان بالدموع، ولكن صاحبنا لا يذكر أنها ضحكت يوما كما ضحكت أمامه وهى تمثل الصديق صاحب السيارة وتروى ما جرى بينها وبينه حين اجترأ أول مرة على اقتراح خطير، بعد تمهيد وتحضير، وحذر وتحذير... وما هو الاقتراح الخطير؟

قبلة...! نعم قبلة، وأكدت الكلمة وهى تروى الحكاية مرتين.

قالـت: «إنه كان ينتظرنى فى طريـق الزمالك، فلمحت أول ما وقع نظرى عليه أنه مهموم قلق يخفى على أطراف شـفتيه نية من النيات، وكان ذلـك بعد أن التقينا عـدة مرات وانفردنا فى الخلوات سـاعات. فلم عسـر على أن أستشف تلك النية، وراقنى أن أستدرجه إلى الإفصاح عنها لأرى كيف يتدرج فى الكلام، فأضجرنى كثيرا قبل أن يسـتجمع فى قلبه القدرة على أن يقول: يا فلانة!

قلت: نعم يا فلان!

قـال: إن لى أمنيـة أحـب أن أفاتحك فيهـا وأرجـو ألا ترفضيها وألا تسيىء تأويلها.

قلت: إننى أحب أن أرى أمانيك كلها تتحقق، ولا سيما الأمانى التى فيها لك الخير والنجاح.

قال: أشكرك... لكن هذه الأمنية فى يديك أنت!

قلـت كالمسـتغربة: فى يدى أنـا! ما علمت قبل الآن أننى رئيسـة عليك، ولا أننى قادرة على نفعك وتوفير ما تتمناه!

فأحجم قليلا، وخشـيت أن يعدل عن مجـرى حديثه فعدت أقول: ومع هذا أسمع منك هذه الأمنية فلعلى أشير عليك بما يفيد.

وبعد جهد جهيد صرح وهو يستغفر ويتلعثم بأنه يتمنى على الله أن أسمح له بقبلة!!

فسكت هنيهة لا أدرى هل أضحك أو أتغاضب وظن أننى أتجهم وأقطب

وأننى أهم أن ألومه وأخاطبه بما يسوءه، فأسرع إلى الاعتذار، وأسرعت أنا إلى الكلام لئلا أضحك، قائلة: أو هذا مما يحسن بك يا فلان؟! لكأنى بك غدا تتمادى إلى أكثر من ذاك...

فصاح كمن مسته نار: أنا؟! أتظنين يا فلانة أننى من هؤلاء؟ معاذ الله يا فلانة. معاذ الله!

لم ينس صاحبنا كيف كانت تضحك وهى تحكى له هذه الحكاية، واستدل من ضحكها أكثر مما استدل من كلامها على مبلغ استخفافها بما يسمونه الصداقة بين النساء والرجال، فما الذى يمنعه أن يصدق أنها تستخف بالوفاء وتمضى مع أيسر الأهواء؟

لا بل هى قد اعترفت له بما هو أدعى إلى الشك والريبة من جميع ما تقدم... فقد غضب منها وغضبت منه، قبل الغضبة الأخيرة، مرات عديدات، بعضها يعقبه الصلح فى يومها وبعضها يتجاوز الأيام وقد يتجاوز الأسابيع، ففى إحدى هذه المرات افترقا بعد عراك عنيف بالغ فى العنف والتهجم فوق ما تعودا من عراك وصدام. وسافر إلى مصيفه وسافرت إلى مصيفها، ولا مطمع لهما فى لقاء، وبلغ من يقينه بالفراق الفاصل أنه عاد من سفره وهو لا يترقب منها سلاما ولو سلام المجاملة والتكليف، ولكنه بعد أيام قليلة تلقى غلافا فيه صور شمسية تمثلها إلى جانب بعض المشاهد الخارجية التى يرحل إليها المصطافون والسائحون، ومضت

أيام معدودات وإذا بجـــرس التليفون يدق وإذا بالمتكلم ذلك الصوت الذى لا يلتبس عليه بين ألوف الأصوات:

– الحمد لله على السلامة!

– سلمك الله وعافاك!

– هل لى أن ألقاك اليوم؟

– نعم. تفضلى!

– أتفضل؟ لا. لســت أتفضل، ولكنى أزورك لألتمس الغفران... هل فى وسعك أن تمثل دور الكاهن فى الديانة المسيحية؟

قال: أخشى أن يكون دورك إذن هو دور الخاطئة؟

قالت: هو ذاك. فإلى اللقاء... فالتليفون لا يتسع لمثل هذا الحديث.

لم يشـــعر ذلك اليوم وهو ينتظرها بخداع ولا باستغفال ولا احتقار. ولكنه شـــعر بخسارة وأسف، وانتظرها كما ينتظر الطبيب مريضا يلجأ إليـــه، واســـتقبلها عاطفا عليها متطلعـــا إلى ما وراء حديثها مســـتعدا للتســـامح فى الإصغـــاء إليهـــا. فدخلت وهـــى تقول فى غـــير احتجاز ولا امتناع: لا قبـــلات ولا تحيات حتى تعرف قصتـــى وأعرف رأيك. اسمع يا فلان. إننى لا أؤمن بصداقة المرأة للمرأة ولا عزاء لى فى معاشرة الصديقـــات المزعومات على الإطلاق، فإن لم يكن إلى جانبى رجل أهابه وأحبه وأعتمد على ســـنده فأنا فى وحشة الهالكين، وأنا ضعيفة ضعيفة ضعيفـــة، لا طاقة لى على دفـــع الغواية. وقد افترقنا يائســـين ليس لك

حـق عنـدى وليس لى حق عندك، وأنا لا أحاسـبك على شـطحاتك فى مصيفـك إن كانـت لك شـطحات! ولكنى أسمح لك أن تحاسـبنى على الصغيرة والكبيرة وأبوح لك بأننى زللت فى المصيف وانغمست فى صلة غرامية ليس فيها غرام فى الحقيقة، ولم أحضر إليك اليوم بل لم أرسل إليك الصور إلا وقد قطعت تلك الصلة وهيأت نفسـى لاستئناف مودتنا القديمة. وهأنذا الساعة بين يديك فماذا أنت قائل؟ هل تقبلنى؟

فاسـتزادها مـن خبر تلـك الصلة التـى لا غرام فيهـا كما تقول، واسترسـلت هى فى تفصيلات لم تستر فيها سـرا ولم تصبغ فيها أمرا بغـير لونه، ولم تقف دون معـرة أو نقيصة كأنها تفرغ قلبها بين يدى الكاهن على حسب «إنذارها» فى حديث التليفون.

قـال بعد أن أصغى إليها فى صمـت وإبهام: إننى يا فلانة لا أملك أن أجيبك هذه الليلة، إن أنا قبلتك فلست آمن أن أندم وإن أنا رفضتك فلسـت آمـن كذلك أن أنـدم. ولكن دعينـى بضعة أيـام ريثما أروض سـريرتى على عزم وثيق وأخبرك بما صحت نيتى عليه، غير خائف من عواقب العجلة.

ومـا انقضت تلك الأيام حتى اسـتقبلها صافحا، وسـألها أن تذكر أبـدا أنه قد يفهـم عذرها من الضعف ولن يفهم لهـا عذرا من الختل والخداع، وحمد لها صراحتها ولكنه فى الواقع لم يسلم من الاحتراس والتوجـس منذ تلك السـاعة، ولم يزل على تفاهـم دخيل بينه وبين

طوايــاه أنه لا يأوى إلى حصن حصين، وأنه مــع ذلك هو حصنه الذى لابد أن يأوى إليه!

فلما ســاورته شبهات الشــك توالت أمامه الدلائل من فلتات اللسان وشــوارد الخاطــر وعلامات الزينــة والحلى والملابس ومــا إلى ذلك من علامات هى لمن يعهدها أثبت من البراهين وأصدق من الشهود، ورانت السآمة على كل لقاء، وتغلغلت اللواعج والأشجان فى كل فراق، وغلبت الأكدار على كل صفاء وكل رجاء. ولم يبق إلا أن يقبلها على أن يستغرق هو فى حبها ويســمح لها هى أن تفرغ لغيره وهذا مستحيل، أو يقبلها على أن يلهو بها وتلهو به وهذا أيضا مستحيل، أو يسوم نفسه قطيعتها وهذا ما قد عول عليه، وظن أنه استطاعه وقدر عليه خمسة أشهر.

وإنه لفى حســبانه هذا يوشــك أن يودع القلق والأســر ويقبل على الطمأنينة والحرية، إذا هو يهاجم فى الصميم! وإذا الظواهر والبواطن كلها تضمن له وهى تتدفق عليه أنه عائد لا محالة إلى ما ودع من شقاء وألم، وليس بين تلك الظواهر والبواطن كلها ما يضمن له أقل ضمان أن يعود إلى ما ودع من ثقة ونعيم، فماذا عســاه أن يصنع؟ لا تســل فكره ولا تســل قلبه ولا تســل ضميره، بل سل كل وشيجة من وشائج لحمه ودمــه وأعصابه التــى عزمت عزمها بغير اكتراث لفكــره أو لقلبه أو لضميره، واستقلت بإرادتها وهى لا تترجم عن تلك الإرادة إلا بالعمل الواقــع دون التفكــير ودون التعليــل ودون التفســير، فطلبت النجاة

بالبداهة المرتجلة وحملت الجسد الذى هى قوامه إلى خارج المنزل وهى لا تعى ولا تفقه إلى أين تسير. ولا لوم على من يطلب النجاة، فإنما هكذا تطلب النجاة!!

علاج الشك

مواجهة

الحقيقة من أصعب المصاعب فى هذه الدنيا: «أولا» لأننا فى الغالب لا نعرف ما هى الحقيقة. «وثانيا» لأننا فى الغالب لا نحب أن نعرفها إلا مضطرين، حين نيأس من قدرتنا على جهلها، ونشك ثم نشك ثم نرى آخر الأمر أن الشك أصعب وأقسى من مواجهة الحقيقة والصبر عليها. و «ثالثا» لأننا إذا عرفناها ففى الغالب- أيضا- أنها تكلفنا تغيير عادة من العادات، وليس أصعب على النفس من تغيير ما اعتادت... فالموت نفسه لا صعوبة فيه لولا أنه يغير ما تعودناه، وفراق الموتى لا يحزننا لولا أنه تغيير عادة أو عادات كثيرة.

وقد كانت الحقيقة أنهما- أى صاحبنا وصاحبتنا- قد تغيرا كثيرا بعد أن مضت على صحبتهما برهة من الزمن، ولكنهما لبثا برهة أخرى من الزمن وهما لا يريدان أن يعترفا بهذا التغيير.

تغيرا فلا سرور لهما فى اللقاء، وقد كان اللقاء عندهما أكبر سرور يشعر به الإنسان.

ولكنهما لم يزالا يتلاقيان.

تغيرا واشتد بهما التغير وهما لا يجسران على مواجهة الحقيقة.. فلو سأل نفسه هل يريد اللقاء حقًا أو يريد الفراق لما استطاع الجواب، أو لقال في نفس واحد إنه يريد اللقاء ويريد الفراق. ولو سألت هي نفسها هذا السؤال لكان جوابها أنها لا تعلم لماذا تحضر في الموعد كل يوم، ولماذا لا تفضل الانقطاع على الحضور.

هو لم يجزم بخيانتها كل الجزم فلماذا يتركها؟... ولكنه لا يسر بلقائها فلماذا يلقاها؟

وهي لم تيأس من صلاح شأنه معها، أو لعلها لم تيأس من قدرتها على خداعه، ويعز عليها أن تتهم نفسها بهذا العجز وهي تفخر بذكائها... فلماذا تفقد الثقة بحيلتها وبراعتها واقتدارها؟ ولماذا لا تجرب كياستها مرة بعد مرة حتى تنجح أو يستوي لديها الفشل والنجاح؟

وهكذا ظلا أشهرا عديدة يمثلان سعادتهما الأولى ويخرجان من مسرح التمثيل كل يوم راضيين أو ساخطين، وخير ما وصلا إليه في تلك الفترة الطويلة أن يظفرا بالتصفيق من المتفرجين... وهما وحدهما المتفرجان والممثلان!

وكلما حان موعد اللقاء ذهبا إليه كما يذهب الممثل إلى حضور تجربة جديدة بعد أن فشلت تجربته السابقة، ولابد له من الذهاب ولا سرور له في القعود والإحجام، والتسليم بينه وبين ضميره أن الذهاب لا يفيد.

لقـد كانا يحضران إلى الموعد بحكم العادة التى لم يجسـرا بعد على تغييرهـا، لأنهمـا كانا يخافان من التفكير فـى التغيير، ويخافان من التفكير فى ذلك الخواء الموحش الذى يستولى عليهما لا محالة بعد ذلك التغيـير. فهما يحضران لأنهما خائفان مـن الغياب، لا لأنهما راغبان فى الحضور.

أمـا قبل ذلك فما أبعـد الفرق وما أهول الاختـلاف وما أحب اللقاء بعـد طول الانتظار! وإن أطول أمد لهذا الانتظار ما كان ليزيد على يوم واحد، أو بعض يوم فى معظم الأوقات.

كانت السـاعة الخامسة كأنها علامة موسومة فى مدار الفلك بالشهب والكواكب والهالات، وكان صاحبنا يتعجل الوقت قبل حلولها بربع ساعة فيلتزم مكانه وراء النافذة لينظر من ثقوبها إلى منعطف الطريق حيث يلوح القـادم أول ما يقبل على الدار. وكثيرا ما كانـت الغيوم تكفهر والغيوث تنهمر والهواء يعصف باردا قارسـا فى صبارة الشـتاء، وصاحبنا واقف وراء النافذة قبل الموعد بربع سـاعة يوشك وهو وجل منقبض الصدر غائم الخاطـر أن ييأس من وصول صاحبتنا فـى موعدها، ولها العذر كل العذر إذا هى تأخرت سـاعات أو عدلت عن الخروج طول ذلك اليوم... ولا يزال فى مرقبه نهبا لهذا الوسـواس لمحة بعد لمحة كأن الزمن قد اسـتحال إلى أجـزاء تعـد بالملايين وملايين الملايين لا بسـتين دقيقة فى السـاعة وسـتين ثانية فى الدقيقـة!! وكلما تقدم جزء من هـذه الملايين تضاعف

الوجل وتفاقم الحذر واختلجت الهواجس المثيرة كما تختلج الذرات فى قارورة يرجها الشلال الدافق أعنف ارتجاج. وبعد مليون جزء من أجزاء الزمن تقترب الساعة الخامسة فإذا هى الساعة الخامسة إلا عشر دقائق! وبعد مليون آخر ثم مليون ثم مليون تقترب ثم تقترب فإذا هى الساعة الخامسة بالدقيقة والثانية... والويل له إذا تجاوزت هذا الحد ولو إلى دقائق معدودات، لأن الدقائق المعدودات لابد أن تترجم فى لغة الانتظار والهواجس بالملايين بعد الملايين التى لا يجمعها الحصر والإحصاء، وإنه ليطيل النظر إلى الطريق حتى يعتريه شبه غيبوبة لا يحقق الناظر فيها ما يراه تحت عينيه، فما رآها مرة بعد هذا الانتظار تهل من مطلع الطريق إلا كما يرجع إلى النائم صحوه أو كما يرجع إلى المذهول رشاده، وتتقدم وهى تتهادى فى خطواتها التى كأنما تتهيأ كل خطوة منها لعناق مشوق، وينفتح الباب وينقسم العالم إلى قسمين اثنين لا ثالث لهما فى الذهن ولا فى الخيال: قسم فيه كل شىء وقسم ليس فيه من شىء... أوقسم موجود وقسم ليس له وجود، والبيت هو القسم العامر الزاخر الحافل الوهاج، والدنيا هى القسم المهجور الذى لا تتسع قاراته وبحاره ومن فيها وما فيها من السكان لأوسع من مكانها فى خرائط الأطفال.

والذى يحدث فى الشتاء قد كان يحدث مثله فى الصيف أيام السموم والحرور. فلا تأخير ولا اعتذار، ولا سلامة مع ذلك من قلق الانتظار، حتى يحين الموعد ويستقر القرار!

فـى تلك الأيـام كانت كل هنيهة لها شـعورها المحبـوب المتجدد البهيج: إذا انفتح الباب للقاء فذلك شعور القائد الذى يفتح باب حصنه ليتلقى نجـدة الأمان والاطمئنان إلى زمن طويـل، وليطرد المخاوف من وراء ذلك الباب إلى مهرب سحيق! وإذا انفتح الباب للوداع فذلك شعور الشـارب الذى اسـتوفى نصيبه من العقار وبقى له نصيبه من النشـوة والتـذكار، ونصيبه من الشـوق فـى الغد إلى مثل هـذا اللقاء ومثل هذا الـوداع ومثل هذا الانتظار، وبين لقاء كل يـوم ووداعه ألف لقاء ووداع وألف انتقال من حال إلى حال، وألف سكينة وألف ابتدار!

تلك أيام!... ثم جاءت بعدها أيام. وشتان أيام وأيام!.

نعم شتان حقيقة وتمثيل... وأى تمثيل؟! تمثيل اللاعب الذى يساق إلى دوره سوقا لأنه يخشى الإخفاق لا لأنه يأمل النجاح.

واسـتمرت المواعيد، واسـتمر اللقاء، واستمرت السـآمة، واستمر الشـقاق، واسـتمرت مع كل ذلك محاولات عقيمة مسـتميتة أن يعود ما لا سبيل إلى أن يعود.

وكانت هى تقلد نفسـها فـى أيام الصفاء فتمد يدهـا إلى جيبه بعد عاصفـة من اللوم الجارح والملاحاة الموجعـة كما كانت تمدها إلى جيبه بعد سـاعات الرضا والدلال، لتخرج منه المفكرة المعهودة وتكتب فيها أسـطرا أو كلمات تسـجل بها ما كان فى ذلك اليوم، فكتبت يوما بعد مقابلة لم يُسـمع فيها إلا جدال ومحال أو سكوت هو أثقل من الجدال

والمحـــال: «نزهة رسمية فى عربة. ثم مناقشـــة جديـــة. ثم مصافحة وتقبيل، ولا عجب فى ذلك... فإن الحب يسهر!»

نعم يسهر من الأرق لا من العناية!

وسسهر الحب إلى اليوم التالى فالتقيا وتراضيـــا وتناولت هى المفكرة وكتبت فيها خمس كلمات: «سامحت من غير سبب أحبك»!

ولكنهـــا كانت آخر ما كتبت فى مفكرة ذلـــك العام، وفيما بعده من أعوام.

ومن الناس من يستطيب أمثال هذه المقابلات ولو لم يكن فيها إلا تمثيل ناجح أو تمثيل فاشـــل، وصاحبنا خليق أن يكون واحدا من هؤلاء الناس لو اقتصر الأمر على الفتور والتكلف والمناقشـــة والملال... ولكن الشـــىء الذى لا يطاق هو أن تشـــك ثم لا تســـتطيع أن تصل إلى الحقيقة، ولا أن تكشف عن الشك ولا أن تستقر عليه، فإنها حالة لا يطاق لها دوام ولابد لها من انتهاء فكيف هذا الانتهاء؟

أول ما اتفقا عليه أن يتفاهما على الفراق أسبوعا أو أسبوعين ريثما يعرفان كيف يكـــون صبرهما على هذا الفراق القصير، ويعرفان من ثم كيف يكون صبرهما على الفراق الحاســـم الذى لا لقاء بعده. فإن هان عليهما بعد هذه المحاولة أن ينفصلا بسلام فلينفصلا إذن بغير ندم ولا خصام، وإن عزت عليهما القطيعة فعسى أن يكون الاشتياق إلى اللقاء فاتحة الرغبة الصادقة من جديد، وعســـى أن يفهم كلاهما

مـن مكان صاحبه عنـدة ما ينهاه عن مطاوعـة الهواجس ومجاراة الشكوك.

وقد استفادا من هذه المحاولة العسيرة فائدة لا يحتقرانها بعد طول السـآمة وطول النزاع، فإن اللهفة الصادقة التى طغت عليهما يوم عادا إلى اللقاء قد عادت بهما إلى حنين شبيه بالحنين القديم، ونعما فى ذلك اليوم بمتعة هنيئة لم ينعما بها منذ عهد طويل.

ولمـا شـيعها إلى الباب وهو يقول إلى اللقاء فـى الغد قالت: لا... إن اللقاء بعد يومين أو ثلاثة أمتع وأشـهى... وسـأخبرك أو تخبرنى عن الموعد متى طلبناه... ولا نتفق عليه الآن!

واستحسـن منها هذا التسـويف كمـا كان من قبل يستحسـن منها نشـاطها فى تعجيل المواعيد، وود فى خلده لو يتأجل اللقاء خمسة أيام أو ستة لا يوما أو يومين. ففى ذلك فطام للهوى وشحذ للشوق والرغبة، وامتحان لقوى النفس يسبر غورها ويلذ فيه حب الاستطلاع.

إلا إنها محاولة قصيرة لم يكتب لها العمر المديد. فما هو إلا موعدان حتـى أحس كمـا يحس كل رجل يفهـم طباع المرأة التـى يهواها أنها لم تحافظ على وفائها ولم تعصم جسـدها أيـام الغياب، وأنها أصبحت ترحب بالتسـويف لأنها تريده وتستريح إليه... ورجـع إلى ذاكرته يفتش لعله يذكر هل هى التى اقترحت فى بادئ الأمر أن يعالج الشـك بالتسويف والمباعدة بين المواعيد أو هو الذى بدأ بالاقتراح، فتذكر أنها

كانـــت تحوم حول الاقتراح وتوحيه إليه وتهتم بأن توقع فى ذهنه أنه هـــو صاحبه وموحيه... فقال لها متهكمـــا: أرى أن الحل الأخير الذى اهتدينا إليه يرضى أكثر من اثنين!!

قالت: ماذا تعنى؟

قـــال: أعنى أنـــه ربما أرضى ثلاثـــة بدلا من اثنـــين، وربما أرضى أربعة... من يدرى؟

قالت متهكمة: وربما خمســـة أو ســـتة... زيادة خير... ولماذا تكره الرضا لعباد الله.

وتلا هـــذه المحاورة منظر من مناظر المســـابقة فى الإيلام والتبكيت والغضب والإغضـــاب. قال فيه وقالت، وتمادى فيه وتمادت، وباح فيه وباحـــت، وخرجـــت من المنزل محنقة لا تودع ولا تســـلم ولا تعد بلقاء مؤجل ولا بلقاء سريع...

وانقضت مدة لا يسمع منها ولا تسمع منه ولا يسعى إليها ولا تسعى إليـــه. ونازعته أهواؤه مرات فى أثناء هذه المـــدة أن يراها وأن يتحدث إليها فتنفر أشـــد نفور وكظم هذه الرغبة بجهد أليم. وبينما هو يحسب نفســـه غاضبا نافرا إذا هو يتحول رويدا رويدا إلى مشـــفق حزين، وإذا بإشـــفاقه الحزين أقرب إلى إشفاق الأبوة الرحيمة منه إلى إشفاق الغرام اللجوج، وإذا هو فى ساعة من الساعات يكتب إليها هذا الخطاب:

أيتها الصديقة:

أيـاً كان رأيى فيـك أو رأيك فىَّ فلا ضير فى إرسـال هذه الكلمة إليـك، ولا خسـارة علـىَّ أن ضاعـت عنـدك أو صادفـت نصيباً من الإصغاء... إن مسـحة من الألم ألمحها علـى وجهك تخيل إلى أننى أخاطب منك مسـتمعا، وأن موضعـا حيا فى ضميرك لا يزال مفتوحا لهذا الخطاب.

لا حاجـة إلى البحث فـى تفاصيل حياتك القديـم منها أو الجديد، فحسـبى ما سمعته من لسانك، وحسـبى أنك تعترفين لى أنا بعلاقات ماضية مع أكثر من رجل واحد. وفى هذا كفاية وفوق الكفاية!

فلو قيل لى إننى سـأسمع هذا الخبر من إنسـان لمـا خطر لى قط أننى أسمعه منـك أنت باختيارك، ولو جاز أن تبوحـى به لكل أذن لكانت أذنـى هى الأذن الوحيدة التى يجمل بك أن تكتمى السـر عنها، لأننى أنا الرجل الوحيد الذى يرى لك كرامة غير كرامة جسـدك، ويحب أن يعرف لك قيمة أكبر من هذه القيمة.

ومع هذا بأى بسـاطة كنت تتحدثين عن علاقاتك بالرجال وخلوتهم بـك هنا وهناك... لكأنما كنت تفخرين!... أو كأنما كنت تشـفقين من كتمـان هذا الحظ السـعيد!... فياصديقتى لشـد ماضللك الشـقاء حتى جهلـت ما تعرفه المرأة بالفطرة بغير حاجـة إلى تعليم وتلقين، وحتى نسـيت أن المرأة تسـتطيع أن تكون لهذا ولذاك ولكنها لا تسـتطيع أن تفخربشـىء لم تعجز عنه امرأة بين النسـاء. فهل أصدق حقا أنك أنت

تلـك المرأة التى لم يبق لها إلا هذا الفخر المخجل الأليم؟ وهل أنت حقا تلك المرأة التى تجد سعادتها فى هذا المجال؟!

أظن- وأرجو أن يكون ظنى صحيحا- أنك تخدعين نفسك يا صديقتى الخادعة المخدوعة. لست أنت التى تشعر بالسعادة فى هذه العيشة الأسيفة... غيرك من النساء تنعم بها وتستطيبها، ولكنَّ شقاءك أنت بها لا يعدله شقاء.

انظرى إلى وجهك فى المرآة. انظرى إلى ألم ضميرك الذى يبكيك كثيرا ولا ريب فى ساعات الوحدة والانفراد، ثم اسألى نفسك. ما نهاية كل هذا وما العاقبة وما المصير؟ لو بقيت على هذه الحالة سنة واحدة لفقدت جمالك فى عنفوان شبابك وفقدت كل ثقتك بنفسك واحترامك لشعور الأنوثة الذى لا سعادة لامرأة بغيره. وماذا فى الحياة بعد فقد الثقة وفقد احترام الشعور؟ أنت فى تلك الحالة بين اثنين: إما أن تألفى العيشة التى تؤلمك الآن وهذا موت النفس الذى يموت به كل سرور صحيح؛ وإما أن تتعذبى بها أبدا بغير عزاء يهون عليك فقد الصحة والنضارة، وأنت إنما تفرين من العذاب وتطلبين الراحة والاطمئنان!

أنت تتألمين ولكنك تجهلين ما يدفع عنك هذا الألم المخيف... فاذكرى نوبات الحيرة وتبكيت الضمير التى كانت تساورك حين تحضرين إلىَّ، واذكرى كيف كنا نفترق وقد هدأت نفسك بعض الهدوء واستراح ضميرك بعض الراحة... كان اهتمامى بك حتى بالغضب عليك

يفرج شيئا من الضيق الذى يسد عليك منافذ الأمل، لأنه يعطيك فكرة عالية فى نفسك، فيعزيك ويقويك ويرفع عنك ذلك الصغار الذى يسمم كل شعور وينغص كل نعيم.

اذكرى كيف كان وجهك يشرق بالبشاشة من عهد قريب، وكيف ظهر ذلك على صحتك وملامحك فسألتنى فى يوم من الأيام بين الجد والمزاح: أصحيح... أصحيح أن وجهى يمتلىء ويحلو؟ كان ذلك وأنت تشعرين إلى جانبك بنفس إنسانية تحنو عليك وتفكر فيك وتجتهد فى عذرك ما استطاعت، وترعاك فى الغيبة والحضور، وهذا أحوج ما تحتاج إليه المرأة خاصة فى هذه الحياة.

فكل امرأة- كل امرأة بلا استثناء- فى وسعها أن تجد رجلا يأخذها جسدا ويطرحها سائما بعد حين بلا أسف ولا شكر ولا احترام.

ولكن ليست كل امرأة واجدة تلك النفس العطوف التى تفهم الدنيا وتفهمها وتحب لها الخير لغير غاية وتهتم بها وحدها بين جميع الناس وتراها أهلا للرضا والغضب والشكر الملام.

أنت أم فاذكرى ذلك جيدا.

أنت فتاة ذكية متعلمة حساسة يقل بين الفتيات مثلك فى هذه الصفات، فلا تنسى عزتك التى تليق بك ولا تنزلى قدرك منزلا لا ترضاه لقدرها كل فتاة، واسألى نفسك مرة أخرى: هل وصلت امرأة إلى النهاية المخيفة- إلى المرض والهوان- من غير هذه البداية؟ وهل وصلت امرأة

إلى تلك العاقبة وهى تظن أنها واصلة إليها أو أنها قريبة منها؟ كلا..! كلهن يا صديقتى يحسبن أن النهاية بعيدة وأن الاحتراس كاف للأمان الدائم والنجاة من عاقبة غيرهن. والعاقبة واحدة على كل حال!

ولست أنت لسوء حظك كأولئك النساء اللواتى تحوطهن حمايات كثيرة وقرابات مشتبكة تستر العيوب وتضلل الشبهات.

فأنت فى حياة التجرد والانفراد عرضة لكل شىء وفريسة رخيصة لكل واش أثيم، وكم جنى عليك حرمانك من أنس القرابة الشفيقة وحنان الأم الرءوم ومعيشة الزوجية الهانئة، فخسرت السعادة وأفسد عليك اليأس عاطفة الرحمة والإخلاص.

ولكن هل من الضرورى لك أن تجنى أنت أيضا على نفسك بيديك فتسلبيها حتى سلوة الألم الشريف وإباء الحرمان العفيف؟ وهل يبقى حرمان فوق حرمان المرأة التى لا تعرف السعادة ولا تعرف الألم الذى تحترمه هى ويحترمه الناس؟

أنا لا أيأس على الرغم من كل شىء... بى من عطف عليك وعلم بحقيقة نفسك الضعيفة الطيبة و «ظروفك» السيئة ما يمنعنى أن أنظر إليك نظرة قاسية.

وما تمنيت ولا أتمنى شيئا كما أتمنى أن أراك بعين الإعجاب والفخر والمحبة. ولكنى أقول لك وأنا آسف: إن فقدك لم يكن هينا علىَّ فى وقت من الأوقات كما هو هين علىَّ الآن. فإذا كتبت إليك هذه الكلمة

فإنمـا هى كلمة صديق يريح ضمـيره وواجب أخير لابد من أدائه، وإذا أبيت إلا أن تفهمى لها معنى من معانى الأنانية فافهمى إذن أنها كلمة إنسان يذكر برهة من حياته ويود أن يحتفظ بهذه الذكرى نظيفة شريفة إلى آخر أيام الحياة.

والوداع، والسلام.

الرقابة

لماذا كتب ذلك الخطاب؟

إنه لم يستوضح نفسه سببا لكتابة ذلك الخطاب وهو يفكر فى كتابته، ولا استوضحها السبب وهو يكتبه ويسلمه إلى الرسول الذى تعود أن يسفر بينهما بالرسائل. ولكنه جلس بعد كتابته يسأل ويعجب: أى خاطر ذلك الخاطر الذى ورد على باله وهو يحسب أنه واصل إلى نتيجة ترضيه من كتابة هذه المواعظ؟ أيظن أن خطابا كهذا قد يثوب بها إلى الوفاء والإخلاص إن كانت تخون وتخدع؟ أيزعم ولو على سبيل الوهم البعيد أنها تتعظ وتندم لأنها تقرأ كلاما كهذا الكلام وتروى النظر فى مصير كذلك المصير.

آخر ما يطمع فيه العاقل أن يظفر بهذه النتيجة من امرأة يميل بها الهوى ويوسوس لها شيطان الخداع! فكيف بصاحبتنا التى يعرفها حق عرفانها ويعرف أن الكلام لا يستحق عندها الهزؤ والتحدى بمزية أفضل من مزية الوعظ والتذكير... إنها تريد أن تثور وتجمح، ولا شىء أقمن بإشباع شهوة الثورة والجماح من مخاطبة الإنسان بكلام يصدر عن العقل ويلبس ثوب النصيحة والهداية!

إذن ما أضيع الوعظ عند صاحبتنا التى تتذوق الكلام وتعطيه «درجته» العادلة من التقريظ والتأثر، ولا يبعد أن تبكى إذا كان فيه ما يحرك الشجن ويستدر الدمع. ولكنها لن تزيد على ذلك، ولن تخلط بين التقدير الفنى والنتائج العملية! ولو كانت فى موضع السلطان العثمانى سليم الأول لبكت من قصيدة الشاعر الذى تشفع لديه بالشعر البليغ ليعفو عنه... ثم أمرت كما أمر بسوقه إلى ساحة الموت عقيب إنشاده القصيدة: لأن الفن شىء والسياسة شىء آخر!!

أم أن صاحبنا- وليكن اسمه «هماما» وليكن اسمها منذ الآن «سارة» لتيسير الكلام عنهما- أم أن صاحبنا هماما قد شاقته الفتاة بعد الفراق القصير ولم يشأ أن يعترف بشوقه ولا أن يستدعيها إليه صراحة فعمد إلى كتابة الخطاب ليفتح باب الحديث فاللقاء...؟!

لا. ولا كل هذا!

إن هماما لم يكن من دأبه أن يقصر فى مراجعة نياته ودسائس طبعه، ولقد يغلو فى ذلك حتى يعزو إلى نفسه من المقاصد ما ليس فى حسبانه، ولكنه- غلا أو لم يغل- ما كان فى وسعه أن يزعم أنه بحاجة إلى تلك الحيلة لتدبير اللقاء دون استدعاء. فاللقاء لم يكن بالشىء العسير، ولم يكن بينهما بعد من القطيعة ما يلجىء إلى الحيلة والمناورة، ولعل انتظاره الهداية من توجيه ذلك الخطاب أقرب إلى التصديق من التذرع به إلى تدبير لقاء.

السبب فى الحقيقة أنه لا سبب هناك... السبب هو الحيرة الملحاح التى تستحثنا إلى كل عمل مستطاع دون أن نستوضح أنفسنا عن علة معقولة أو نتيجة مأمولة. وكل من حار هذه الحيرة يوما يذكر أنه فعل شيئا لا علة فيه، ولا هو يقبل التعليل.

كذلك يفعل الأب الذى يرى بين يديه ولدا مريضا ميئوسا من شفائه وهو لا يستقر إلى التسليم، وكذلك يفعل المخرج الذى يرى أن العمل واجب لأنه خير من سكون لا صبر له عليه. وكذلك يفعل الذى لابد أن يفعل، لأنه بالفعل يستريح. أما بالسكون فلا راحة ولا أمل فى الراحة.

وأتبع وصول الخطاب حديث بالتليفون. لم يكن هذا الحديث بالمقصود، ولكنه لم يكن كذلك بالمكروه ولا بالمرفوض.

وأتبع الحديث موعد وزيارة. وجاءت فى الموعد وهى تبدو بتلك الطلعة التى يعهدها منها بعد كل مغاضبة وقبل كل مصالحة: طلعة السفير الذى يدخل المملكة الغريبة ولا يدرى أحرب أم سلام، فهو لا يبرز القوة ولكنه يتقى أن يبرز الضعف ولا يحمل غصن الزيتون ولكنه مستعد به فى الحقيبة المغلقة، ولا يتجهم ولكنه لا يتطلق ويتبسط... فلم تتهيأ للموعد بزينتها التى تعلم أنها تروقه وتستجلب هواه، ولكنها لم تهمل زينتها إهمال المعرض قليل الاكتراث. فهى زينة صالحة مع قليل من الاعتذار... وإذا وصل الأمر إلى هذا فأى اعتذار لا يغنى غناءه ولو جاء عفو الساعة؟!

وكان من دأبها أن تختلس رضاه وتحطم الحواجز بينها وبينه بسلاح من سلاحين: بالدعابة والتهكم، أو بالأسى والتضعضع. فأما فى هذه المرة فسلاح الأسى والتماس الشفقة لن يلائم مظهر السفارة التى تتردد بين الحرب والسلام. فدخلت من الباب وهى تشهر سلاح التهكم والمناوشة، والتفتت وهى داخلة كمن ضل الطريق وأفضى به السير إلى غير المكان المتوقع، فقالت وهى تلقى بقبعتها:

من أكبر العجب أننى وصلت إلى هنا ولم أصل إلى المعبد!

قال همام فى سره: ويحك! هذه تحية وعظك! ثم أجابها من نمط تحيتها قائلا: معبد؟ استغفرى الله يا أمة الله!! وهل تستطيع قدماك أن تحملاك إلى المعبد ولو قادك إليه ألف دليل؟

قالت ولم تتريث: إنه لتقريظ حسن لبيتك أن يكون هو المكان الوحيد الذى تحملنى إليه قدماى!!

قال: وهل تحسبيننى أغتبط بهذا التقريظ!

قالت: معاذ الله، ولا سيما وأنت بخطابك صاحب دعوى فى الهداية والإرشاد لا تقل عن دعوى أهل الصناعة... ومع ذلك لا أظنك آسفا لهذه الغلطة.

وبدأت فى نغمة الدلال بعد ما أنست من لهجة الحوار أن الساعة ساعة غصن الزيتون لا ساعة السيف. ثم دنت منه تقبله، فقبلها وضمها وأجلسها وجلس إلى جانبها وهو يغمغم متخاذلا: لو أنها غلطة قدمين يا سارة ؟!

قالت: غلطة قدمين أو غلطة يدين، ألا تستطيع أن تتعلم «الربوبية» ساعة وتغفر الزلات؟

وضحكت ضحكة حلوة خبيثة مسترسلة ليس لها معنى إلا إنها تقول فيها: أنا أعرف كيف أرضيك! أليس كذلك؟

فجاراها فى الضحك وقال لها بلهجة المستظرف والعاشق معا: وهل أحرص عليك يا ملعونة إلا لهذه الحذلقة؟ متى علمت أن ربًا من أرباب الأساطير غفر الزلات لشريكة قلبه! إنهم يغفرون للمخلوقات التى تخون المخلوقات من أمثالها، أما «الخيانة العظمى» فأين هم الأرباب الذين يغفرونها؟

واطمأنت إلى مكانها، وشعرت أنها فى بيتها... نعم فى بيتها لا فى «سفارة» تقبل عليها غريبة وتخرج منها مقبولة أو مريبة، فوثبت من جانبه كما يثب الطائر بلا تنبيه ولا انتباه إلى أين؟ إلى «الرشاش» كعادتها فى كل زيارة بلا اختلاف بين صبح ومساء وصيف وشتاء، لأنها لا تميز الفصول كما تقول إلا بالتقويم وجريدة الأزياء!

أفى هذه تريد التفريط يا همام وهى فى قبضة يديك؟ لا يا صاح! لست معك فى هذا... إنما التفريط فيما يعوض ويستبدل، فأما الذى لا يعوض عنه ولا بديل له فإن احتمال الأذى فيه لخير من احتمال ضياعه واللهفة عليه.

وإنــه لفى هــذه المناجاة إذا هى تتهادى وتنفض شــعرها كما تنفض الفــرس الكريمــة عرفها، وإذا هى أمــام المرآة مصقولــة ندية كالثمرة الناضجة فى شعاع الفجر البليل... وكالشيطان!

منذ الأزل وقفت هذه الفتنة إلى جانب ووقف إلى الجانب المقابل لها حكماء الأرض وهداتها ومشــترعوها وأصحاب النظم والدســاتيرفيها، وقالت هــذه الفتنة كلمتها وقــال الحكماء والهــداة كلمتهم، ونظرت ونظــروا، ووعــدت وأوعدت ووعــدوا وأوعدوا. وأمامــك الناس جميعا فاســألهم واحدا واحدا: كم مرة سمعتهم هذه وكم مرة سمعتهم هؤلاء، وأنا الضمين لك أن فى تاريخ كل إنسان مرة واحدة على الأقل سمع فيها لهذه الفتنة ولم يسمع معها لحكمة الحكماء ولا لشىء من الأشياء!

ليست هى المرأة المسموعة هنا ولكنها هى الطبيعة.

والمــرأة والرجل والحكمــاء والحكمة ألعوبة الطبيعة التى لا تســأم اللعــب، ولا تعرف الجد لأنهــا لا تعرف التعب. وربمــا كانت المرأة أضعف هذه الألاعيب كما يكون الطعم أضعف من الســمكة التى تأكله، وإن كان الطعم ليقودن السمكة إلى الهلاك.

ومــن القاضى الفاصل بين الطبيعة والحكمــة؟ إنما القضاء لمن ينتظر منهمــا الحجة الأخيرة والنتيجة الخاتمة. ولكن ليس للطبيعة انتهاء. فهى فى جميع الأزمان صاحبة القول الأخير.

فى ملحمة الصراع بين الفتنة والحجى ينسى الإنسان ما لا ينسى، ويخطر له الإغضاء عما يشهده بعينيه ويثبته ببرهانه، ولقد خطر هذا لهمام فى تلك اللحظة ووسوس له الهوى أن ينزل بتلك المرأة الماثلة أمامه إلى حيث ينسى خيانتها ولا يذكر إلا متعتها. فتمنى فى تلك اللحظة أمنية غريبة: تمنى لو كان حبه لها أقل، وماضيه معها أقصر، وشرطه عليها أقرب وأيسر. إذن لاكتفى منها بما تعطيه، واستبقاها على شرطها ومرامها لا على شرطه ومرامه.

إن الرجل الذى يهب للمرأة ساعة من يومه يكتفى منها بساعة من يومها، ولكن هل يكتفى منها بتلك الساعة وهو يهب لها ساعاته وأيامه وينسج حولها ماضيه وحاضره، ويحجب بيديه ضياء المستقبل الذى يطلع عليهما مفترقين كأنه يطمع من الدنيا فى غرام بغير فراق؟

إن الابن لن يكون ابنا أو نصف ابن، وإن التحفة النفيسة لن تكون صحيحة أو نصف زائفة، فهى إما صنعة الفنان المنسوبة إليه والفترة المردودة إليها، وإمَّا هى ليست بصنعته على الإطلاق، فلا تقريب ولا توسط فى هذه الأمور.

وهذه المرأة، بل هذا العالم الحاشد من النساء لأن كل لحظة من لحظاته معها تمده بنسخة منها قلما تختلط بأخواتها، هذه المرأة التى لا امرأة غيرها كيف يرضاها ولديها رجل غيره فى إبان هواها!

ليست الحكمة هى التى تتكلم هنا ولكنها هى الطبيعة: ومن ذا يقاوم الطبيعة فى غوايتها غير الطبيعة فى ثورتها؟! إن الصراع هنا لبين ندين متكافئين، والويل للفريسة المطرودة بين الندين.

لا! سأحتفظ بهذه التحفة وأصونها جهد ما فى وسعى من احتفاظ وصيانة، ولكننى لن أحتفظ بها إلا تحفة نفيسة... فإذا بعتها فلن أبيعها إلا وقد أيقنت أننى غير مغبون فيها ولا نادم عليها.

تحفة بين يدى لا شك فيها... أقول حينا إنها تحفة نفيسة فليس فى كنوز الأرض ما يعدلها ويقوم بثمنها! وأقول حينا إنها تحفة زائفة فلو بعتها بدرهم لما كنت بخاسر.

وهذه هى الحيرة. فقولى يا حكمة الحكماء ويا هداية الهداة، وقولوا لى يا صيارفة هذه الجواهر ويا دهاقين هذه المعادن، ويا من يستطيعون أن يضعوا المنظار لحظة واحدة وراء هذه العين اللامعة فيلمحوا هنالك الفارق الهائل بين ما يباع بدرهم وما ليس يباع بكنوز الأرض وذخائر البحار.

لا! لن أبيعها إلا بدرهم. فإن كانت الأخرى فلا بيع ولا شراء: «لما غلا ثمنى عدمت المشترى».

نعم وعدمت البائع أيضا... هذه هى الحيرة فكيف الخروج منها؟ لا حاجة إلى أكثر من نظرة واحدة لتسويم هذه الجوهرة. فمن ذاك الذى تتاح له تلك النظرة؟!

كان همـام فى تلـك الأيام يقرأ رواية «سـيدة الأكاذيـب» للكاتب الفرنسـى الكبير بـول بورجيه، ولعلـه قرأها لعنوانهـا وما يرجو أن يطلـع عليه من أكاذيب سـيدتها... وفى الروايـة امرأة لعوب من نسـاء الأسـر المترفات، وزوج متغافل وعاشق كهل يبذل المال والحلى والهدايا، وعاشـق ناشىء يبذل شبابه وجماله وطرافة هواه، وكل من هؤلاء راض بنصيبه إلا العاشق الفتى الذى يتنطس ويتوجس ويلح فى كشف الأسرار فيعمد إلى الرقابة ولا يلبث أن يخلص إلى الحقيقة. فما الرأى إذن فى الرقابة؟

إن نظرة من رقيب أمين لتغنى عن كل صيارفة الجواهر الذين يسومون معـادن الوفاء وليس لهم معيار واحد يبطل فيه الخلاف... فإن لم يكن من الرقابة بد فلتكن الرقابة، ولكل شىء من جنسه آفة!

وأثلجـت تلك الخاطـرة صدر همام وإن كانت قد غضت من سـروره باللحظة التى هو فيها، ومن أين يخلص السرور وبينك وبينه رقيب؟

تتابعـت الخواطر عدوا دراكا فى رأس همام وهو يتأمل الفتنة الماثلة أمام المرآة ويتناسـى شـغفه بها كلما تمادى فى تفتيشها واستقصائها، ولم تسـتغرق كل هاتيك الخواطر منه ريثما فرغت «سـارة» من تسريح شـعرها وتجفيـف إهابها، لأنه كان يسـتعرض هاتيـك الخواطر كما يسـتعرض صفحـة مفتوحـة بين يديه يحيـط بها فى نظـرة واحدة،

ولم تكن خواطره لتشغله عن كلمة من هنا وتعليق من هناك جوابا لما كانت تعابثه به من الملاحظات والمناوشات... غير أنها فطنت لما يجول فى خلده وأدركت أنه ليس معها بجميع قلبه ولسانه. وأشفقت أن يستطرد ويستطرد فتتسع المسافة بينهما. فاستدارت إليه من المرآة متفترة متكسرة، ومدت جيدها وثنت أعطافها وقالت: أراني متعبة. أريد أن أذهب... أو أريد أن أنام.

وانقضى اليوم بسلام، ونسيا أو تناسيا خطاب «الوعظ» بعد ما كان من عبث التحية الأولى، ونزلت سارة وهى مستريحة مستبشرة خفيفة القلب والطوية لا يبدو عليها أثر من التكلف والرياء...

ومن دأب المرأة إذا انتعشت حواسها أن تخف وتنشط ولا يثقل على ضميرها عبء من الأعباء، وهذا الذى يلوح للرجل فى صورة البراءة فينخدع، أو هذا الذى يسمونه أحيانا بعمق المرأة وقدرتها على إجادة الرياء وإخفاء ما فى الطوية، وإنما هى فى خفتها كالطفل الذى تأخذه حماسة اللعب فلا تحضره الشواغل ولا تثقله الدخائل، وقد ود «همام» لو يستطيع أن يخلط بين هذه الخفة وخفة البراءة، وما هو بمستطيع. فليرجع إلى الرقابة فهى مرجع الإنصاف ومقطع الخلاف، وفيها وحدها تسويم لتلك المتعة بكنوز الأرض وذخائر البحار، أو بدرهم لا يندم عليه ملقيه فى التراب.

وكيف الرقابة؟

صحت النية على الرقابة فلا مناص منها. وبقى أمر الرقيب والعثور عليه. فمن يكون هذا الرقيب؟!

لم يشرع همام فى بحث هذه المسألة حتى وضح له أنها مشكلة كثيرة الشعاب. فخطر له فى مبدأ الأمر أن يستعين برجل يؤدى هذه المهمة وينقده على ذلك أجرا يرضيه. ثم قلب الأمر على وجوهه فرأى أن هذا الرجل المستأجر يحتاج إلى رقيب عليه لضمان إخلاصه وجده وحسن التبصر فى عمله... فإذا ترك بغير رقيب فأغلب الظن أنه يأتى فى آخر كل نهار ومعه كشف طويل عريض بأجور السيارات والجلوس على القهوات ورشوة الخدم والبوابين، ولا فائدة من جميع ذلك غير التضليل والمراوغة والتشويق لاستطالة الرقابة واغتنام الأجور.

ثم تنقضى الأيام وهو لم يعرف شيئا ولا أعان على معرفة شىء: وهبه عرف بعض الحقيقة أو عرف الحقيقة كلها فهذا أخطر وأخسر... لأنه يستغل معرفته كلما احتاج إلى المال لابتزاز الإتاوات والإنذار بكشف الأسرار، فيوما يهدد السيدة ويوما يهدد السيد ويوما يقارب الأقرباء والأولياء ويلوح لهم بما وراء الغطاء. ولعله يختصر الطريق من أوله فيطلع السيدة على مهمته ويفسد الأمر فسادا لا صلاح بعده.

رقيب أجير لا ينفع فى هذه المواقف، ولن ينفع فيها إلا الصديق الصدوق.

نعم لا ينفع فيها إلا رجل يعنيه أن يعرف الحقيقة ويؤمن قبل ذلك بأنها حقيقة تستحق عناءها! فكم عندك يا همام من أمثال هذا الصديق؟ مئات؟! عشرات؟! آحاد؟!

إن الناس يحسبون «الضيق» محك الصداقة الذى لا يكذب ولا يخيب. والناس فى ذلك مخطئون؛ لأن الصديق الذى ينجد صديقه فى الضيق قد يتخلى عنه وينقلب عليه فى أعماق السريرة.

وليست المعونة الصادقة هى المعونة التى تدخل فى رقابة العرف أو فى رقابتك أنت بينك وبين صديقك، ولكنها المعونة التى لا حسيب عليها غير الضمير، ولا باعث لها غير اتفاق الهوى وامتزاج الشعور.

كثير من الأصدقاء يعينون أصدقاءهم فى الضيق لأن العرف يحمد لهم هذه المعونة ويتخذهم مثالا للأمانة والوفاء وجميل الفداء.

وكثير من الأصدقاء يعينون المرء على الشئون التى يشعر هو بمعونتهم أو بتقصيرهم فيها، لأنه يحمد لهم ما صنعوا ويجزيهم بما أسلفوا ويرد لهم ما أقرضوا. أما الشئون التى لا رقابة عليها للمرء ولا للعرف فالمعينون عليها أقل من القليل، وهمام- أو غير همام- سعداء إن ظفروا من كل ألف صاحب بواحد فذ من هؤلاء الأعوان.

فى هذه الشئون يستطيع الصديق أن يقصر وأنت لا تشعر بتقصيره،

وربما قصر ولم يؤمن هو بأنه مقصر ملوم، لأنه لا يؤمن بجنون العاطفة ونزوات الهوى.. فكيف يتقى مغبة التقصير ويصبر فى سبيل ذلك على الجهد العسير أو اليسير؟ وإذا انكشف تقصيره فمن ذا الذى يلومه؟ لعله يلقى يومئذ من المعذرة والثناء أضعاف ما يخشاه من العذل والمذمة. وذلك كله على أهون الفروض.

أما أصعب الفروض فهو أن تنقلب الرقابة إلى مطاردة والمطاردة إلى اقتناص.. وليس أصعب الفروض دائما بأبعدها وأندرها فى الوقوع!

حيرة جديدة «نجا» إليها همام من الحيرة الأولى.. والحيرة الأولى باقية كما كانت فى موضعها القديم.

وإن هماما ليضرب أخماسه وأسداسه ويبرح فى ضربه وإيجاعه إذا القدر يحل له المشكلة العصية أسهل حل مستطاع، وإذا السماء تنفتح على حين غرة ويهبط منها الرقيب المنشود!!

– ماذا جاء بك يا أمين.

– جاءت بى إجازة أيام.

– ويحك! أنت طول عمرك تفصل من أعمالك بغير داع. أفما كان فى وسعك هذه النوبة أن تنفصل فصلا نهائيا يا لئيم!

قال أمين وقد فوجئ: لماذا هذا الاستعجال على الفصل؟ ما الخبر؟

قال همام: الخبر أنك لازم لنا مدة طويلة.. أطول من أيام... ولعلها أطول من أسابيع.

وسرد له المسألة بأقصى مارآه صالحا من التفصيل والإسهاب، فلم يكذبه حدسه، وأسرع أمين بالإجابة والموافقة، وأوشك أن يسرع بالشكر والتهلل كأنه كان يتمنى ما اقترح عليه؛ ووعد أن يأتى بقصارى جهده فى هذه الأيام القليلة ولا حاجة إلى الفصل المألوف!

لم يكن همام قد نسى أمينا فى مشكلة الرقابة، وليس أمين بالصديق الذى ينسى فى مشكلة من قبيلها، لأنه يؤمن بالواجبات الشعرية أشد من إيمانه بجميع الواجبات الإنسانية، وهو ذو أريحية ومروءة وصدق لسان وصراحة شيمة، ويحسب أن خيانة الصديق فى العشق لا تقل عن الخيانة فى أقدس الحرمات، وبينه وبين المطاردة والاقتناص هذا الخلق المستقيم الجميل وشىء آخر غير مستقيم ولا جميل! وهو أسنان عوجاء مثرمة ووجه كثير التجاعيد والغضون.. فإلى أن يمسخ طبعه وتنصلح أسنانه ووجهه هو ولا ريب وفاق الشرائط من وجوه كثيرة، وأحق من الصحب قاطبة بالتذكر والاعتماد!

إلا أن هماما تخطاه بادئ الأمر لسببين: أحدهما ان أمينا كان يومئذ يعمل بقرية بينها وبين القاهرة مسيرة ساعات على جميع وسائل المواصلات: على القدم وعلى المطية وعلى السفينة وعلى القطار أو السيارة. وثانيهما- وأخطرهما- سهوات الذكاء التى اشتهر بها أمين ويالها من سهوات! فهى كعيب ذلك الزنجى الذى يكذب فى السنة أكذوبة واحدة... وفى هذه الأكذوبة الواحدة قاصمة الظهور!

فيجـوز أن يكون إخلاصه هـو كل المطلوب فى هذه المواقف، ويجوز أيضـا أن يكون هو كل المحذور؛ وهمام وحظه ونصيبه بين الجوازين! وإليك المثال:

كان السيد أمين فى إحدى إجازاته القصيرة ينزل بمنزل همام؛ ودق التليفون عصارى يوم فى مسـألة عاجلة فخف همام إلى الخارج وأوصى أمينـا أن ينتظـره ريثما يعود بعد نصف سـاعة، وأن يسـتقبل ضيوفا قادمـين فى هذه الآونة ويعتذر إليهم بعذر همام الفاجئ؛ ويبلغهم أنه سيرجع بعد هنيهة ليقضى معهم الأصيل حسب الموعد... وقد عاد همام بعد نصف السـاعة المقدور فلا أمينـا ولا ضيوفا وجد فى المنزل!! وكل ما وجده بطاقات الضيوف فى عقب الباب عليها كلمات موجزة تشـف عن الأسف والاستغراب.

ولبـث همام يقدر فى ذهنـه ما توهمه الضيوف من أسـباب مغيبه المتعمد ولا مراء. فإنه لا يخرج فى هذه السـاعة، وليس للضيوف إلا أن يعتقدوا كل الاعتقاد أنه راغ عن الموعد أو أخفى نفسه وتركهم يرجعون على أعقابهم مسافة ليست بالهينة ولا بالقصيرة.

وبينما همام يستغرب خروج أمين ولا يدرى ماذا أخرجه خاصة فى هذا اليوم الذى سـئل فيه الانتظار- أقبل السـيد أمين يحمل فى يديه قازوزتين وقليلا من الفاكهة والحلوى، وهو راض عن نفسه رضا الرجل الضليع بمهام الأمور.

قـال أمين وهـو يخفى اعتزازه واغتباطه بحسـن تدبـيره وعرفانه بالواجبات التى ينسـاها الغافلون: إنك يا صاح قد نسـيت أن الثلاجة خاليـة، وأن الضيوف قادمـون، وقد ذهبت أحضر لهم بعض الشـىء فعسى أن يستطيبوه!

فضحك همـام غيظا وعجبا من اهتداء صديقه إلى العمل الوحيد الذى لا ينبغـى أن يعمل واعتقاده مع ذلـك أنه هو الواجب الذى ينبغى دون سـواه... وربت على كتف الصديق قائلا: أحسـنت أحسنت يا مولانا، وما عليك الآن إلا أن تعدو بالقازوزة والفاكهة فى أثر الضيوف فلا شـك أنهم منتظروهـا فى الطريق! وأراه البطاقات وما هو مكتوب عليها فما زاد على أن فغر فاه ونطق بحكمته المأثورة كلما أدرك خطأه: «مدهش!» حضـروا وعادوا؟ ليس لهم حق!.. أما كان يصح أن ينتظروا؟.. نعم كان يصح أن ينتظروا. أما هو فلا يصح أن ينتظرهم فى البيت.

مضحكات الرقابة

بدأت الرقابة وفاقا لما كان منظورا منها بغير اختلال: أمانة بالغة وشـدة لا هوادة فيها، ثم مضحكات لا تنقطع يوما إلا ريثما تعـود على أمثال أغرب وأبعد عن الحسـبان... وهـى مضحكات حين تنقضى عليها ثلاثة أو أربعة أعوام، أما فى أوانها فأيسر ما فيها يغيظ غيظ الجنون.

ومـن اليوم التالى ظهـرت أمانة الرقيب حرفا حرفـا فى كل جليلة ودقيقة، فطابقت رواياته كل ما كان يعلمه همام من أخبار سـارة التى تحكيها له طواعية أو التى يتحرى سـؤالها عنهـا فى ثنايا الحديث. وما كان همام يطلع أمينا على مواعيده مع سارة ولا على الساعة ولا على الجهة التى ينويان اللقاء فيهـا، فكانت مطابقة الأخبار لهذه المواعيد وما يلحق بها من الحواشى.

والملابسـات مؤكدة لهمـام مـا كان يعتقده من صـدق أمين وصواب الاعتماد عليه.

وجـاء أثنـاء الرقابة يوم شـات من أيام الزمهريـر، عاصف قارس مطير. فأشـفق همام أن يتصرف أمين فيستبيح لنفسه إهمال الرقابة فى ذلك اليوم ولا لوم عليه. إذ أين هى السـيدة الرشيقة الأنيقة التى تغادر دارها بين أوحال الأرض وسيول السماء!

إن أمينا لمعذور إذا هو استباح الإغضاء والهوادة فى مثل ذلك اليوم المكفهر العبوس، ولكن الذى يعرف سارة لا يعرف يوما هو أحق بتشديد الرقابـة من ذلك اليوم، لأن هذه الأوقات هى أوقاتها المختارة للتسـلل والروغان، وفرق عشرين درجة فى ميزان الحرارة الجوية لايقابله فرق مثله فى حرارة جسـمها الفتى المنيع، لأنها لم تعرف قط ما هو مدلول كلمة الزكام فى الآناف والأجسام.

أشفق همام من ذاك فهبط من داره ملتفا فى دثارة، وركب ساعة ليبلغ إلى المكان الذى يتربص فيه أمين. فألفاه متربصا حيث يقيم كل يوم.

لا خـوف إذن من هذه الناحيـة. ولا غبار على نتيجة الرقابة فى اليوم كله. فقد خرجت سارة فعلا قبيل العصر وعادت إلى منزلها قبيل المغرب، ولم تذهـب فيما بين ذلك إلا إلى منزل صديقة عزيـزة لها كانت تناجيها بأشـجانها وتطلعها على أسـرارها، فلم يشـأ همام أن يكـون مفرطا فى التوجـس والافـتراض. ولم يلاحظ إلا أن الخروج فى اليـوم المطير لزيارة صديقة أمر غريب مريب، واكتفى بتفسـير هـذه الغرابة بأنها واحدة من غرابات «سارة» وبدواتها التى لا تتقيد بالعرف والاصطلاح... ولو أتيح له أن يعلم يومئذ- كما علم بعد شهور- أن الصديقة العزيزة لم تكن إذ ذاك فى المنزل ولا فى القاهرة لما كبح ظنونه عن الإفراط فى التوجس والافتراض.

وكان الرسـم المتفق عليه بين همام وأمين أن يقص أمين كل ما يراه ويسـمعه منذ خروج سارة من منزلها إلى عودتها، كائنا ما كان شأنه من التفاهة وقلة الدلالة فى نظره. فلا يسـقط شيئا ولا يستهين بشىء وإن هان، وضرب همام مثلا لذلك لون الرداء وزى الملابس فهو شـىء لا يختلف مدلوله فى رأى أمين ولكنه يدل على الكثير فى رأى همام، وضرب مثلا آخر أن تركب السـيدة الترام فتتخطى مقصورة السيدات إلى مقصورة الرجال، أو تتخطى هذه وتلك إلى كراسى الدرجة الثانية. فـلا يمكن أن يكون ذلك بغير دلالـة تقترن بدلالة أخرى فتعين على

جـلاء الحقيقة. وهكذا من أمثال هذه الطفائف والقرائن التى لا غنى عنها للوصول إلى نتيجة من وراء الملاحقة والرقابة.

ولم يكن فى سـرد هذه المشاهدات صعوبة على أمين لأنه كان مطبوعا علـى التقـاط ما يبصر ويسـمع ومحاكاة مـا يلتفت إليه مـن اللهجات والحـركات والإشـارات. فجاء يومـا بعد مراقبة نهـار كامل بحكاية ما شـك همام وهو يسـمع أوائلها أنه لن ينتهى إلى أواخرها حتى يضع يده على لباب الحقيقة، ويتطرق منها إلى النبأ اليقين.

قـال لقد خرجت السـيدة عصـرا تلبـس رداء عنابيـا ومعها طفل صغير، فذهبت إلى بيت صعدت إلى دوره الأعلى ثم نزلت ومعها سـيدة تكبرها بعدة سنوات، ومضيا إلى دار من دور الصور المتحركة فى شارع عماد الدين، فجلسـت انتظرها على القهـوة الملحقة بالدار، ولم يمض نصف ساعة حتى خرجت وحدها وليس معها الطفل ولا السيدة!..

ما شك همام حين وصل أمين إلى هذه المرحلة من حكايته أن فى الأمر شيئا وأنه يتعقب الأثر الصحيح إلى النتيجة الصحيحة.

نعـم إن أمينا أخطأ إذ لم يدخل معهـا إلى قاعة الصور المتحركة ولكن خروجها بعد ذلك قد أصلح ذلك الخطأ وعفا عليه... وما يراه بعد الخروج هو المهم، وليس ما يراه فى القاعة إن رأى هناك ما يسـتحق الالتفات... وإلا فلماذا تخرج بعد نصف سـاعة؟ ولماذا تخـرج وحدها؟ وذلك الثوب العنابى أليس هو الثوب الذى تحب أن تتزين به لخلوتها وتحسبه أجمل

عليها من سائر ثيابها؟! فالحقيقة إذن على مدى خطوتين، ويستر الله فلا يعثر أمين بإحدى سهواته فى إحدى هاتين الخطوتين. وماذا عسى أن يعثره بعد هذا المدى؟ وكيف يعثر يا ترى؟ ذلك بعيد... وأغلب الظن أن الأمر سينكشف وأن الغاشية ستنجلى وأن ليل الشكوك والهواجس المضطربة سيسفر بعد لحظة عن فجر صادق بين...

ثم ماذا يا أمين؟

ثم سهوة من تلك السهوات التى تنقض فى صدمة المباغتة، والتى لا ترد على البال ولا تقع فى الأوهام، والتى يخيل إليك أن أمينا لم يعثر بها إلا لأنه تعمد أن يعثر بها وأصر على تدبيرها، لأن ما صنعه هو الشىء الوحيد الذى لا ينتظر أن يكون.

اعتدل أمين فى مجلسه واتكأ على عصاه، وقال فى راحة الذى لم يضيع أقل فرصة وأقصى احتمال: إن السيدة لم تعد بعد خروجها من دار الصور المتحركة!

- ويحك، وإلى أين ذهبت؟

- لا أدرى.

- كيف لا تدرى! ألم تتبعها؟

- لا. لأننى ما شككت فى أنها خرجت لحاجة لها ثم تعود.. ولا يليق أن أتبعها.

فانتفض همام وهو يغالب غيظه وسخطه وصاح به: يا أخرق! أليس فى دار الصور ما يغنى سيدة مهذبة عن الخروج إلى منعطفات الطريق؟

ففطن أمين ساعتئذ لسهوته «الجبارة»... وأخذ فى تمحل الأعذار والمسوغات، وهو- على صدقه- لا يتورع فى هذه الأزمات المحرجات عن أكذوبة صغيرة يتقى بها التهزئة والتسخيف أشد من اتقائه الملامة والتعنيف، وقال: الواقع أننى صادفت والدى عابرا فحيانى وجلس معى وخشيت إن أنا تبعت السيدة فجأة أن يستريب ويتكدر. فلبثت فى مكانى على رجاء أن تعود.

ومن الجائز حقا أن تكون السيدة قد ذهبت ولم تعد لأنها واعدت صاحبتها أن تلقاها فى مكان اتفقتا عليه. ولكن إلى أين ذهبت؟ ولماذا ذهبت؟... هنا الحيرة التى لا تدع للذهن أن يتجه خطوة إلى اليمين حتى يرجع فيتجه خطوة إلى الشمال. ثم يتبلد حائرا فى موقفه لا إلى هنا ولا إلى هناك.

فى الحى الذى قصدت إليه بيوت فيها مخادع محجوزة لطلاب الغواية، وفيه أسرتان بينهما وبين سارة ولاء وثيق، وبعض الأطفال فى إحدى الأسرتين مريض. ويجوز أن تكون سارة قد ذهبت إلى مخدع من مخادع الغواية كما يجوز أنها ذهبت للسؤال عن الطفل ولم تصطحب طفلها خوفا عليه من العدوى، وما عدا ذلك من الاحتمالات يتقابل ويتوازن بحيث لا ترجح كفة على كفة، وإن رجحت إحدى الكفتين فإنما ترجح بالتخمين والتقدير، وليست الرقابة للتخمين بل لليقين القاطع المفصل الذى لا لبس فيه ويجىء أمين فى يوم آخر بنبأ من هذه

الأنباء التى تدنو بهمام إلى مدى خطوتين من الشاطئ ثم تقذف به فى لمحة عين كما يقذف الموج الغريق إلى مدى آباد لا تعبر، وقد حدث نفسه بالنجاة...

ذهبت السيدة إلى دار الصور المتحركة ولقيها شاب مديد القامة، فحمل الطفل وقبله ودخل معها إلى الدار وودعها بعد الانصراف إلى أن ركبت الترام الذى يصل بها إلى المنزل. فتبعها أمين ولم يتبع الشاب الذى هو موضع البحث والسؤال!!

وتضاربت الظنون فى وهم همام حتى كانا بعد يومين يسيران هو وأمين فى الطريق فأوشك أمين أن يقفز من جانبه ويعدو وراء شاب مقبع[1] طويل وقد صاح فى صوت مسموع: هذا هو الشاب!

فلم يمنعه همام أن يستمر فى صياحه وعدوه إلا بمشقة؛ وأدرك الشاب وتبينه فمن ذا رأى أمامه؟... أخاها!

ولا ذنب لسهوات أمين فى هذه القصة إلا فى غفلته عن متابعة الشاب وإيثاره أن يتابع السيدة بعد ركوبها الترام.. كأنما المقصود أن يعرف منزلها لا أن يعرف من كان معها، أما البقية فالذنب فيها ذنب همام لأنه كتم عن صاحبه كل ما يتعلق بسارة غير شخصها ومسكنها، حذرا من سهواته لا حذرا من نياته.

* * *

(١) يلبس قبعة.

ولزمت سارة مسكنها يوما لا تريمه إلى زيارة ولا إلى مسرح، وتلك نادرة لم تتكرر فيما عدا أيام حفلاتها وولائمها غير مرات معدودات. فليس لسارة عالم تعيش فيه غير عالم الدنيا الواسعة وعالم الحب والمحبين. أما عالم الضمير الذى يروده الإنسان وحده ويأنس فيه إلى التفرد والوحشة فذلك أبغض العوالم إليها وأثقلها وطأة عليها. لا تمكث فيه هنيهة إلا بإغراء كتاب، وقلما يكون الكتاب عندها إلا منفذا إلى الدنيا الواسعة، ودنيا الحب والمحبين.

فسنحت لهمام خاطرة أن يجرب الرقابة داخل المنزل لعل هناك أحدا تحوم حوله شبهة ويصلح لاتجاه المظنة، ولما سأل أمينا عن النور فى جناح سارة: من أين كان مصدره فى ذلك اليوم؟ علم أنه كان يصدر فيما بين الساعة السابعة والساعة الثامنة من الحجرة التى يعلم همام أنها حجرة النوم، وهى حجرة لا تأوى إليها سارة إلا لتنام، ولم تتعود أن تستقبل زوارها ولا أن تقرأ فى غير حجرة الاستقبال... ولم تختل تلك الوتيرة سنوات كان همام يجاورها فيها ويلم بجميع عاداتها وحركاتها فى منزلها، فلماذا تختل فى ذلك الموعد من المساء؟ لماذا تختل القاعدة فى الموعد الذى تكون فيه على انفراد بعد نوم الطفل وانصراف الخادمة؟

ربما كانت الرقابة داخل المنزل ألزم وأجدى من الرقابة خارجه ولو يوما من الأيام. وقد أدى أمين رسالته فى هذه الرقابة الجديدة

وخاب كما خاب فى غيرها، لولا أن الخيبة هنا كانت مشفوعة بخطر الضرب المبرح والفضيحة الشنيعة، فما سلم منه إلا بأعجوبة من أعاجيب السياسة!

ذلك أنه ولج المنزل متسللا وصعد السلم متلكئا ليقرأ الأسماء التى على الأبواب. ولمحه فتى يهبط من أعلى المنزل فظن أنه يتلصص أو يتجسس، وليس التجسس ببدع فى ذلك الحين. فانتهره الفتى مزدريا، وناداه متأففا: مالك تتسكع على الأبواب يا هذا؟ ماذا تريد؟

ولم يكن أمين بالذى يتراجع إذا هوجم، ولا بالذى يلين إذا خوشن. وقد تملكه الربكة إذا خوطب فى رفق وأدب واضطر إلى تدبير الجواب وتحضير المعاذير. فأما إذا قوبل بالتوقح والإهانة فلا ربكة ولا عناء... إنما هى دقة بدقة وصيحة بصيحة، وصفعة بصفعة، إذا استطرد اللجاج إلى هذه النهاية.

فما حفل أمين بالفتى ولا زاد على أن نظر إليه متجهما متجعدا وقال: امض فى سبيلك. فليس هذا شأنك!!

ولقد دهش الفتى والتفت إليه مذهولا وهو يتمتم: ليس من شأنى؟ كيف؟ إننى أسكن هنا... إن فى المنزل آلى وحرمى! يا لها من أعاجيب! يا لها من صفاقة؟

ولكنه مع ذلك نزل. وسمعه أمين ينادى على البواب من أقصى الطريق ويقول له: أين أنت؟ وماذا عساك أن تصنع إذا كنت تسمح لهذا الجاسوس أن يقتحم البيت ويتسمع على الأبواب؟

جاسوس؟

لقد سلم أمين بفضل الجاسوسية والخوف من الجاسوسية. ومن ذا يضرب الجواسيس ووراءهم قوة الشرطة وقوة الدولة وكل قوة تخاف فى تلك الأيام؟

سلم أمين من الضرب وهبط السلم يتهادى غير هياب ولا وجل! وألهمه الله أن يشمخ بأنفه ويزجر البواب قائلا: أنتم تأكلون بغير عمل. أنتم لا تستحقون أجوركم... لقد صفقت وناديت فما أجابنى أحد، ولقد حاولت أن أراك لأسألك عن جناح خال فما اهتديت لك إلى شبح، ولو سكنت فى هذا البيت لما أبقيت عليك!

فقبع البواب واستخذى، ولاح له أنه غانم سالم إذا انجاب هذا الرجل السليط سواء كان جاسوسا أم باحثا عن مسكن، وتركه ينفتل لطيته وهو يتبعه بقوله: معذرة يا بك! لا بأس يا بك! حقك علينا يا بك!

وافترقا وكلاهما يحمد الله على النجاة. إلا أن أمينا قضى منذ تلك الساعة على مستقبله فى الرقابة مضروبا أو غير مضروب وناجيا أو غير ناج!! فما كان فى وسعه أن يتراءى وهو آمن على جلده «حول مكان الواقعة» كما يقولون فى لغة الشرطة قبل أن تنصرم أيام وأيام... وشاءت المصادفات ألا تكون الخسارة عظيمة. فإن عناء الرقابة قد ضاع بغير جدوى، وإن أيام الإجازة قد قاربت الانتهاء.

القطيعة

حصلت القطيعة ولما تسفر الرقابة عن نتيجة.

حصلت ولم يردها أحد، ولم يغتبط بها أحد، كأنها مخلوق قائم بمعزل عن أبويه: تريد له بنيته المستقلة ما تريد ولا يريد لنفسه أو يريد له أبواه: يمرض وينحل ويموت وهو لا يريد الموت ولا يريده له القوامون عليه. بل كأنه الجنين الذى استوفى حمله فلابد له من الظهور، ولو ماتت أمه وانفطر قلب أبيه.

أولم يقل همام إنه لن يفرط فى هوى سارة ولن ينفصل عنها إلا وهو واثق كل الوثوق من خيانتها، وعاجز كل العجز عن صيانتها؟... أولم يقل إنها حلية مونقة إن غلت سومت بكنوز الأرض وذخائر البحار، وإن رخصت هانت عن السوام والصيان؟ أولم يقل ذلك ويعتزم العزم كله ويستجمع النية كلها على أن لا فراق ولا قطيعة إلا وقد عرف ما تساويه من قيمة وما تستحقه من غيرة وضنانة.

بلى! قال كل ذلك، ونوى كل ذلك، ولكن الحب الذى أوحى إليه كل ذلك قد فسد وانحل ومات، ولم يبق إلا أن يدفن؛ وأن يحمله إلى الدفن أبواه! وهما آخر من يود له الموت، ويخف به إلى ذلك المصير.

لو كانت المسألة قضية تنظر وحكما يصدر بعد نظرها لكان عجيبا أن تثبت القطيعة قبل ثبوت الخيانة، وأن تقع العقوبة قبل وضوح الجناية. ولكن من هو القاضى هنا؟ ومن الجانى؟ ومن الفريسة؟ ومن صاحب الفصل وشارع القانون؟

هنا قضية لا تلمح فيها قاضيا حتى تراه جانيا وتراه فريسة وتراه مقضيًّا عليه، فلا حكم ولا براهين ولا شريعة! بل حادث من حوادث القدر ينقض كما تنقض الصاعقة أو يشتعل كما تشتعل النار. هنا عناصر طبيعية لا تسأل فيها ماذا تنوى وماذا تريد؟ بل تسأل فيها ماذا عملت بعد أن تعمل؟ كالذى يهرب من السيل ليقع فى الهاوية، وكالذى يهرب من البركان ليقع فى اللجة الزاخرة، وكالذى يهرب من النمر ليبتلعه التمساح، وكالذى يهرب من الرصاص لتنوشه الرماح. كل ما أنت قادر أن تجزم به هنا أنه لن يستطيع البقاء حيث كان.. وهل يستطيع البقاء حيث صار؟ كلا! ولا هنالك يستطيع البقاء.

فإذا سألت: لماذا اعتزم همام القطيعة بعد أن كان يعزم التربص والمطاولة- فليس سبيلك أن تعلم أنه آثر القطيعة وحمد مغبتها واستمرأ مذاقها، وإنما سبيلك أن تعلم أنه لا قرار له على ما كان فيه، وأنه مدفوع إلى الهرب منه كما يندفع الهارب من النمر إلى التمساح.

* * *

فى أيام الرقابة وبعدها بأسابيع قليلة تكررت الزيارات وتسابق همام وسارة فى الاستزادة منها وهما يتكلفان، ولا يجهلان أنهما يتكلفان. أحلى ما كانا يتمليانه من سويعات الهوى فى تلك الأيام إنما كان بالقياس إلى هواهما الخصيب المطواع كالثمار المحفوظة فى العلب، بالقياس إلى الثمار على أشجارها بين غياضها وأنهارها.

ولم يكن همام يصور لحدسه كيف تشعر سارة بتلك السويعات المصطنعة. ولكنه هو كان يشعر شعورا لا يزال يعاوده ويبرز أمامه كلما جهد فى تبديله والإشاحة عنه بخياله: كان يشعر كمن يلهو ويتلاهى على مقربة من جنازة وفى جوار مقبرة، فمن حيثما أقبل أو أعرض فهنالك ظلال الموت، وكآبة الفناء، وسوانح الأحزان!

ومن أعجب ما كان يتمثله وهو يداعبها ويعانقها ذات يوم- سرير شيخ محتضر يتابع التدخين ولا يلقى بلفيفة إلا أومأ إلى من حوله فى طلب لفيفة أخرى. وما كان الشيخ يصنع ذلك قبل أن يثقل عليه السقام ويتدانى منه شبح الحمام. ولكنه كان يدخن مرة فدخل عليه همام عائدا، واستبشر قائلا: بركة يا عماه! إن الذى يتطعم الدخان يتطعم العافية، وأراك تتقدم إلى الشفاء إن شاء الله.

ومن تلك الساعة لم تعد للشيخ من وسيلة يحاذر بها وهم الموت غير التدخين كلما شارف اليقين. فهو يتبع اللفيفة بأختها ليقنع نفسه بأنه يشتهيها، وأنه ما دام يشتهيها فهو على رجاء فى العافية والبقاء.

لقد كان يدخن ويبالغ فى طلب التبغ خوفا من خيال الموت لا سرورا بموالاة التدخين. وما أقرب هذه الصورة الفاجعة مما كانت فيه سارة وهمام؟

لقد كانا يحرقان من لفائف الحب أضعاف ما أحرقا فى عنفوانه وانطلاق طوفانه. ولكنهما يفرطان فى الحب ويتكلفان الإفراط لشعورهما بقنوطه لا لشعورهما برجائه، ولإقبالهما على شتائه الأجدب لا لإقبالهما على ربيع بهجته وروائه.

وكانا فى عنفوان الهوى يتشاجران ولا يباليان الشجار، ويتغاضبان ولا يجفلان من الغضب، ويختلفان ويلحان فى الخلاف ولا يتحرزان من الخلاف والإلحاح: جسم فتى قوى فماذا تضيره هبة من عاصفة أو لفحة من هجير. فلما شاخ الحب أجفلا من الغضب والخلاف، كما يجفل الشيخ الهرم من غضبة تنذر بالقضاء عليه. فلا هما هانئان بوئام ولا هما قادران على خصام.

سرور مشكوك فيه، وإن غاب عنه الشك فهو هزيل. وألم حق لا شك فيه، ثم يتلو اللقاء اللقاء فيزيد هماما علامة من علامات الخيانة التى ليس بعدها من إقناع عنده غير يقين اللمس والعيان.

وإنهما ليدافعان الغضب والخلاف ويطاولان المغالطة والمراء إذا بالغضب يدفعهما فى شلاله بين صخوره وأوحاله، فيندفعان ويندفعان كأبشع ما يكون الهياج والثوران، وكأنما هما نادمان على ما كان من

مصانعة وبهتان. كلا! لا جدوى من المراء. لا بقاء لهذه الحال. لا مناص من الفراق إن كان لا مناص منه... ولا مناص!

كانا يتلاقيان- إذا لم يتلاقيا فى المنزل- عند مفترق طريق فى الضاحية ينشعب يمينا إلى ناحية الصحراء: ويسارا إلى ناحية الأندية ودور الصور المتحركة، وكانت تلمحه مقبلا فتسبقه خطوات إلى حيث تواعدا من قبل: فإما فى الصحراء أو فى بعض الأندية يدخلانها على انفراد.

وقد تواعدا- بعد أسبوع من تلك الغضبة الثائرة- على اللقاء عند ذلك المفترق من الطريق. ليعطيها أوراقها وصورها وذكرياتها ويسترد منها أوراقه وصوره وذكرياته، ثم يفترق كل منهما فى طريقه إلى حيث يختفى من حياتها وتختفى من حياته. وقبل الموعد بساعة أخذ فى جمع تلك الأوراق ومراجعتها ليعلم منها ما هو مطلوب وذو بال وما هو مهمل ومطروح. فيا لله كم تبلغ الورقة الخفيفة من وقر وفداحة! وكم تختلف المعايير والأحجام فى موازين الأكف والأذهان: لقد كانت الرسائل والصور والهدايا كلها لا تملأ حقيبة صغيرة تحملها اليد الواحدة، ولكنه كان يحمل الورقة منها وكأنما يزحزح جبلا راسخا يشل السواعد والأقدام دون صخرة واحدة من صخوره.

ومشى إلى الموعد مشية لا اختيار فيها ولا إكراه! مشية الرجل الذى يسعى بقدميه إلى غرفة الجراحة ليبتر عضوا من أعضائه غير آمن أن

يكون فى بتره الموت، أو مشـية الأميات اللواتى كن فيما مضى يحملن فلـذات أكبادهـن إلى مذبح الأربـاب، قربانا غير رخيـص ولا مزهود فيـه... وسـبقها إلى الموعد فانتظرها دقائق معـدودات لاحت له كأنها آباد، ولكنه فى الواقع كان لا يتمنى لها الفوات.

ثم أقبلت فى ثوبها العنابى وطرتها المشـتهاة! ونظرت إليه وهمت أن تنحـرف إلى ناحية الصحراء... لم؟ إنهما اتفقا على اللقاء لحظة فى مفترق الطريق يأخذ منها ويعطيها ولا حاجة بهما إلى مراجعة. وكانت الطريق فى تلك الساعة خالية إلا مـن عابر بعيد أو عابرة بعيدة. ففيم انحرفـت إلى ناحية الصحراء؟ ألمراجعة الأوراق؟ لو شـاءت المراجعة هنالك لما أعانهما غبش المسـاء. إنه حكم العـادة على ما يظهر. أما هو فـكل ما سـاوره فى تلك اللحظة خشـية الانفراد والأمـن من الأنظار، وخشـية ما يزجيه الموقف المنفرد من كلمة أو عـبرة أو نظرة وجيعة، وخشـية الوهن والتردد والإرجاء! وخشية العودة من البداءة إلى التيه المفزع الذى أشرف فى تلك اللحظة على النهاية. وتلك جرعات لا يطيب للفم أن يترشف منها كل يوم!

أخذ منها وأعطاها. وسـلم ولم تجبه أو سـلمت ولم يجبها، أو نسيا السلام والوداع معا. لا يذكر، وافترقا فى طريقين متدابرين.

لـو كان همام فى غير ذلك الموقف لتذكـر وقال وتدبر: تذكر مفترق الطريـق بالأمس وتذكر مفـترق الطريق فى هذا المسـاء وقارن بين لقاء

قلما يضن فيه بشـــيء ولقاء قلما يجاد فيه بســـلام الوداع الأخير. ولكنه كان مغمـــور الفـــؤاد في جو من الغـــم واليأس كجو الضبـــاب الكثيف: لاتسترسل فيه العين إلى مدى بعيد ولا ترى ما حولها إلا في غلاف من نســـيج الأطياف، وكل ما يذكره بعد ما افترقا أن جسما غاب عن النظر ولم يشيعه وهو يغيب!

وســـار في وجهـــة المنزل وكأنه يريد أن يبتعد منـــه لا أن يدنو إليه بخطـــاه، وفي يده حقيبة صغيرة لا يدرى مـــاذا يصنع بها، ويزعم أنه يـــود لو ألقاها فـــي عرض الصحراء لولا ما فيها مـــن حديث يصونه عن الإفشـــاء... يزعم ذلك ويفهم من حيث لا يشـــعر أن ساطيا لو سطا على الحقيبة في تلك اللحظة ليمزقها ويحرقها لذاده عنها كما يذود الشحيح عن بقية ما لديه من حطام. ثم دخل المنزل وتهافت على أقرب كرســـي في أقرب حجرة، فلو شـــهده شـــاهد يجهل ما كان فيه لخاله قادما من مسيرة أيام لا مسيرة لحظات...

وكان في المنزل عشـــير قديم يعلم أين ذهـــب ومن أين عاد. فلما طال ســـكوت همام وعزوفه قال له صاحبه يمازحه ويسليه: علام أنت آسف يا صاح؟ هل تركت فيها من بقية وطر تشـــتهيها؟ هل عندها من متعة لم تســـتوف شـــبعك منها؟ فما بالك تأســـى وتكتئب وقد أراحك الله من رفاتها بعد أن نعمت بروحها ولبابها؟

عزاء حسن حين تكون المرأة التى تفقدها مائدة تفرغ منها وقد أتيت على آخر لقمة فيها. أما حين تكون جزءا من الحياة لا تنفصل إلا فصلت معها شطرا من لحمها ودمها وظاهرها وباطنها فذلك أضعف العزاء، بل هو نقيض العزاء!

إنما يعزيك الزميل الذى تحسه قريبا منك بشعور مثل شعورك... ولقد يغنيك من عزائه إحساسك بقربه ساعتئذ وهو صامت واجم دون كلام ولا إيماء. أما الكلام الذى سمعه همام من صاحبه وهو فى جواره فقد تركه يصغى إليه وكأنه يتسمع ألفاظا مغلقة من هاتف لا يراه!

من هى؟

من هى سارة؟... من هى الفتاة التى مشينا معها هذا الشوط ولا نعرفها، والتى رأينا منها خطوطا ولم نر منها صورة، والتى قرأنا عنها كلمات كثيرة ولكنها كلمات بينها كثير من الفواصل، وحروف كثيرة ولكنها حروف يعوزها كثير من الإعجام؟...

هى شىء يعرف ولا يعرف.. أتتكلم بلسان الصوفية؟ كلا. بل بلسان العرف المقرر والمشاهدات اليومية، فإن سارة بنت من بنات الواقع الحى الملموس.. وبنات الواقع هن اللواتى نعرفهن جيدا ولا نعرفهن جيدا، ولو كانت من بنات الخيال لما بقى منها شىء مجهول!

وليس بالنافع أن نصفها كما كان يراها همام في أيام صفود وهيامه، أو نصفها كما كان يراها في أيام نفوره واشمئزازه، أو نصفها كما كان يراها وهو على القرب سائم، أو كما كان يراها وهو على البعد مشوق، ولكننا قد نصفها مزيجا من هؤلاء فنخلص من وصفها إلى صورة تشبه «سارة» التي خلقها الله، وتشبه سارة التي يذكرها همام بعد زوال الغاشية وانقضاء السنوات.

هي جميلة: جميلة لا مراء، ليست أجمل من رأى همام في حياته ولا أجمل من رأى في أيام فتنته وشغفه، ولكنها جميلة جمالا لا يختلط بغيره في ملامح النساء. فلو عمدت إلى ترتيب ألف امرأة هي منهن لنظمتهن واحدة بعد واحدة في مراتب الجمال المألوف، ونحيت سارة على الصف وحدها... وإن كنت لا تنكر- ولا تبالي أن تنكر- أنها تأتي بعد مئات!

لونها كلون الشهد المصفى، يأخذ من محاسن الألوان البيضاء والسمراء والحمراء والصفراء في مسحة واحدة. وعيناها نجلاوان، وطفاوان، تخفيان الأسرار ولا تخفيان النزغات: فيهما خطفة الصقر ودعة الحمامة. وفمها فم الطفل الرضيع لولا ثنايا تخجل العقد النضيد في تناسق وانتظام، ولها ذقن كطرف الكمثرى الصغيرة، واستدارة وجه وبضاضة جسم لا تفترقان عن سمات الطفولة في لمحة الناظر. وبين وجهها النضير وجسمها الغضير جيد كأنه

الحلية الفنية سبكت لتنسجم بينهما وفاقا لتمام الحسن من كليهما. فليس هو جيدا كأى جيد. ولكنه الجيد الذى يوائم بين ذلك الوجه وذلك القوام.

يتخطاها من يراها على عجل، ثم يعود مدركا أنه قد تخطى شيئا لا يفات، فليست من الروعة بحيث تقسرك على التحديق إليها، وليست من سهولة المرأى بحيث ترسلك ناجيا فى سبيلك.. قوام بين هذا وذاك، أو طراز آخر غير هذا وذاك.

لو تكفل بها خبير من معاهد التجميل الحديث لخفف شيئا من قوامها الرداح بين الربعة والطويل، قبل أن يبرزها فى معرض الرقص والرشاقة. ولو تكفل بها قهرمان القصر عند كسرى أو عبد الحميد لما ضاره أن يزيد فيها حيث ينقص زميله الحديث، قبل أن يزفها إلى الشاهنشاه.

حزمة من أعصاب تسمى امرأة. وهيهات أن تسمى شيئا غير امرأة!

استغرقتها الأنوثة فليس فيها إلا أنوثة. ولعلها أنثى ونصف أنثى، لأنها أكثر من امرأة واحدة فى فضائل الجنس وعيوبه، لا لأنها أضعف من امرأة واحدة.

ولقد يخيل إلى الإنسان فى أحايين أن يتمم مخلوقا ببضعة من مخلوق، وأن يسوى تكوينا بتكوين، ويمزج عنصرا من الأبدان بعنصر، فامرأة يتممها رجل، وآدمى يتممه حيوان، وطلعة فتاة يتممها قوام فتى،

وأبوّة أحرى أن تنتقل إلى أمومة، وأشباه ذلك من أخيلة المزج والتركيب. أمـا هذه المخلوقة فلـو انتقل عصب منها إلى تكويـن ليث غضنفر لبقى هنالك عصب أنثى بين جميع ما حوله من ألواح وأمشـاج؛ ولو بقى ألف سنة. ولو أنها تفرقت بين أجسام شتى لكانت فيها خميرة أنوثة يوشك أن تطغى على جميع تلك الأجسام.

شـغلتها جـواذب الجسـد قبـل أن تفقـه معناها وتسـمع باسمها ومسـماها. فلما كانت بنية دارجة فى المدرسـة ذهبت يوما إلى كرسى الاعـتراف تسـتغفر الكاهن عن مخالفة وصية من الوصايا العشـر التى حفظتها، وتتوب عن مقارفة الخطيئة التى دعوها فى المدرسة «متعة أو ترفا على سـبيل الكناية! فذعر الكاهن ولم يصدق ما يسمع. واستعادها مرة بعـد مرة وهى آخذة فى ذعر كذعر الكاهن من مس العدوى ورهبة الصـوت.... ماذا؟ فيما دون العاشـرة وبين جدران مدرسـة ليس فيها إلا البنات تزل بنية لم يكعب ثدياها وتقترف أم الخطايا التى يقترفها النسـاء والرجال؟.. وما سـكنت بلابل الكاهن المذعور حتى بدا له من لهجتهـا أنها لا تفقه ما تقول، وأنها تلهـو بمحاكاة المعترفات لأنها أحبـت أن تصنع مثل ما يصنعن؛ وبحثت عما تعترف به فلم تجد غير هـذه الخطيئة التى تجهلها. وقد نجت الخاطئـة الصغيرة بعركة أذن وجيعة، ثم ذهبت تسـائل الزميلات ما هذا الذى ذعر منه الكاهن ذلك الذعر الشديد؟ فلا تفوز بغير ضحكات وغمزات.

قال لهـا همام وهى تحكى لـه حكايتها: لقد حسـب لك اعترافك قبل أوانـه... ولئن اعترفت بالأمس وما أخطـأت لأنت اليوم تخطئين وما تعترفين!

وعاشـت بعد ذلك تنظر إلى خطايا الأديان نظـرة المرأة الوثنية التى نشأت قبل أن ينشـأ الأنبياء. فهى ليست كالمتدينة التى خامرها الشك فـى دينها، ولكنها كالمرأة التى لم تتدين قط ولا قبل لها بالتدين... عن نزعة طبيعيـة فيها لا عن بحث ونقاش واطـلاع، ومثلها كمثل الطفل يأكل الحلوى خلسـة إن لم يأكلها جهرة، وآبـاؤه مع ذلك هم الملومون لأنهم منعوه، وليس هو بالملوم لأنه اختلس ما لابد له من اختلاسه!.

ليست غواية الجسم عندها كجوع الحيوان يشبعه العلف، ولا كضجر المدمن يخدره العقار، ولكنها كرعدة الحمـى وصرعة الفرح الجموح، يتبعها النشاط والمراح كما يتبعها الإعياء والبكاء.

لها فراسـة نفاذة فى كل ما بين الجنسـين من علاقـة، لو حصلتها بالتعليـم والتلقين لاسـتغرقت أعمـارا إلى جانب عمرها فـى القراءة. ولكنها تفطن لما فى نفـس المرأة لأنها امرأة، وتفطن لما فى نفس الرجل لأنها امرأة، ويعينها ذكاء موصول بالفطرة، وتعبير يتضح فى ذهنها، وإن لم يتضح بعض الأحايين على لسانها.

والحـق أن هـذه الفتـاة كانت فـى معرفتها بطبيعتهـا الأنثوية أعجوبة، وكان همام يسـمع منها ما قل أن تفهمه امرأة وإن شـعرت

به، وقل أن تقوله وإن فهمته، وقل أن تحسن التعبير عنه وإن أرادت أن تقوله. إذ المعهود فى المرأة أنها تشعر ولا تفهم شعورها أو أنها تفهمه ولا تعمد إلى الصراحة فيه، أو أنها تعمد إلى الصراحة فيه ولكن لا تحسن التعبير. أما هذه الفتاة فعلم الأنوثة عندها كعلم الحساب عند بعض الأطفال الذين يجمعون ويضربون عشرات الأرقام بغير تدوين ولا مراجعة: مسألة بداهة سهلة لا إجهاد فيها للفكر ولا اعتساف ولا تعليم!

فى سهرة من سهرات الصور المتحركة شاهدا رواية من روايات الغرام بين الكهول بطلها «أدولف منجو» الممثل المشهور بتمثيل هذه الأدوار، أو المشهور بقدرته على غزو قلوب النساء الناضجات. وكان «منجو» بغيضا إلى همام كما هو بغيض إلى كثير من النظارة فى دور الصور. فأراد همام أن يناوئ صاحبته فقال لها: أما والله إن النساء لسخيفات إن كان لمثل هذا الرجل هذه الحظوة عندهن؟

فأجابته متحدية: ولم لا تكون له هذه الحظوة عند النساء؟ ألا تعجب المرأة إلا بفتى صبوح أو بفتى متين الأركان؟ هذا خطؤكم معشر الرجال. إن الفتيان الحسان الأشداء قد يفتنون المرأة، وقد يخلبونها، وقد يهيجون نفسها، ولكنهم لا يقرّبونها إليهم ولا إلى نفسها.. إن أحدهم لينظر إليها كأنه غريب يمشى فى بلد غريب يخشى أن يتقدم أو يتأخر، متهيبا يعديها بالتهيب، فتقوم بينهما الحواجز والسدود ولا يسهل

التقريب بينهما بعد ذلك. أو ينظر إليها نظرة القانص القاتك فيربكها ويزعزع شعورها ويوقع الهزيمة فى سريرتها.

أما الرجل الخبير بالنساء من أمثال «أدولف منجو» فإنه ينظر إليها بعد أن نظر إلى مئات من قبلها فإذا به يعرفها مكشوفة معراة من كل ستر ومن كل طلاء، وإذا بها تحس كل الإحساس أنه يعرفها كما تعرف نفسها فى مخدعها، وإذا هى قريبة منه لا تحتاج إلى تقريب، بل قريبة منه بوحى لا تدركه ولا تلتفت إليه، قريبة منه كما يكون الرجل والمرأة فى الخلوة بعد عشرة أعوام. والرجل الخبير بالنساء يشبع منهن فيزهد فيهن ولا يتهالك عليهن... فإذا أحست المرأة بالفتور منه فى الطلب والمغازلة خشيت أن تكون هى المعيبة المجفوة فى نظره بالقياس إلى من عرف من النساء، ولم تتهمه فى ذوقه بل اتهمت نفسها فى جمالها، و «جاذبيتها» كما هو دأب المرأة من سوء الظن بنفسها أمام هؤلاء الرجال، ونشأت عندها الرغبة فى اجتذابه واستطلاع رأيه، واستسلمت له فى سهولة وطواعية، لعلمها أن الحيلة معه لا تخفى عليه. بعد ما شهد الكثير من حيل النساء...

هل بحثت سارة هذا الموضوع بحث الفلاسفة؟ هل قرأته فى كتاب من كتب الصور المتحركة؟ يجوز! ولكن فطنتها وحسن روايتها لما قرأت لا تزالان عجيبتين بين شبيهاتها من الفتيات.

وتمييزها لملامح الرجولة ومظاهرها تمييز لا يخطئ لأنه أشبه بالغريزة التى لم تعرف غير الصواب لأنها لم تعرف غير صواب

واحد. كصواب النحلة فى بناء الخلايا. فالرجال الذين يشبهون النساء لا يستحقون منها حتى نظرة الزراية.. لأنها لا تشعر لهم بوجود، وما عدا هؤلاء من رجال فهم نماذج عدة تبلغ المئات ولكنهم مشمولون جميعا فى رجولة واحدة خلاصتها القوة والثقة والبروز، والطغيان القابل للرحمة والحنان، وقبس من أريحية الخيال ونفحة من حماسة الروح، تحسبان فى الزينة عرضا ولا تضمنان الرجحان فى الميزان.

ولهذا تضل الطريق الذى تسلكه مع من تهواه ولو سلكته مرات فى النهار، لأنها تلقى كل اعتمادها على صاحبها حتى لتكاد تنظر بعينيه وتمشى بقدميه. وأبغض من تبغض- وهى قارئة حصيفة- أولئك النسوة الثائرات على الرجال المطالبات بما يسمينه حقوق الحرية، فهى تقول إنها لو سئلت أن تكون رجلا ما قبلت، وإنها لو كانت تثور لثارت على الرجال لأنهم يستمعون إلى ذلك الهراء.

ومن لوازمها التى لا تفارقها أنها ما حضرت قط رواية فيها نزاع بين رجل وامرأة وعاشق وعاشقة إلا كان عطفها فى جانب الرجل وإن غدر وإن خان، ويشق عليها منظر العشق المولة المغموم فتهتف من قلبها لا من لسانها وحده: ما من امرأة تستحق هذا العذاب!

تحب التدليل كما تحبه كل بنت من بنات حواء، ولكنها تكره التدليل السخى الفياض كما تكره التدليل المعسول الناصع الحلاوة، وإنما تحب أن يقطر لها التدليل تقطيرا وأن يشاب لها أبدا ببعض التوابل والأفاويه!

سألت صديقها وقد صفت واستسلمت لعطفه عليها: أتحزن علىَّ إذا مت؟

فلم يدر كيف يجيبها، ولكنه قال: هذا سؤال سابق لأوانه يا بنية!

قالت: ستبكى ولا شك. لا أسألك فى ذلك... ولكن كم عبرة يا ترى تميزنى بها على من بكيتهم؟

قال وهو لا يظهر المزح ولا يحاول أن يتكلفه: أراجع ما عندى من «رصيد» العبرات وأجيبك قبل الوقت المناسب بقليل!

قالت: أنت لا تريح!

قال: ولكنى أراك مرتاحة... أأنت تموتين! ومن الذى يأذن لك أن تموتى!

وكانت مرتاحة حقا لما سمعت، ولو أنه أسمعها غير ذلك من حسرات التفجع والتعوذ ومواعيد الحزن القاتل وعهود الوفاء الدائم لفترت وملت وانقلبت عليه، ولكنه إذا ضمها وربت عليها وضن بعد ذلك بالكلام فقد وفاها من التدليل غاية مناها، وضمن ألا تفسد عليه صفاء الساعة التى هى فيها.

وكان همام يمتحن معارفها الغرامية كل يوم أو كل أسبوع أو كل شهر مرة على أبعد تقدير، ويرشحها على أثر كل امتحان لوظيفة من الوظائف التى «تؤهلها» لها تلك المعارف الكثيرة... إلا أنه استقر آخر الأمر على أنها أصلح ما تكون مديرة للإضاءة فى مسرح تمثيل!

لأنهـا تعلم مواقـع الرؤية علمـا لا خطأ فيه، وربما وقفـت فى المكان المكشـوف والنوافذ مطلة عليه من جوانب شـتى، ثم لا تبالى أن تمازح صاحبها وتغريه بمزاحها وتجميشـها. فإذا أحجم وتردد ضحكت منه سـاخرة، وأولعت بتعبيره والتهكم عليه، لأنه لم يفهم لأول وهلة كما فهمت هى أن الأشـعة المردودة عن زجـاج النوافذ هناك تحجب النظر من ورائها!!

تعلمت وهامت بأوربا، فأوربا عندها نبى معصوم: كل شىء فيها خير من كل شىء فى غيرها، وهذه التى تغفل عن الأديان حتى يخيل إليك أنها لم تسمع قط بمكة وبيت المقدس وطور سيناء- هذه الوثنية فى عالم الدين تراهـا فى عـالم الأزياء فتعلم لأول وهلة أنهـا لا تغفل لحظة واحدة عن وحى باريس ومناسـك الأزياء فى العالم الأوروبى بأسره... لأنها تتحرج من وضع شريط فى غير موضعه أو لبس زى فى غير موعده، تحرج الزاهد الصالح من ذنب ينفيه عن رحمة الله ويخلده فى جحيم عذابه.

وكان صاحبهـا همام على نقيضها يهـزأ بالعرف وقد يتعمد الخروج عليه ولو فى المجامع العامة. لحق بها ليلة بدار الأوبرا وهو فى ملابسه الصباحية فكادت حين رأته إلى جانبها تجن من الغيظ وتتجاهل معرفتها بـه ومصاحبتها إيـاه. وجعلت تنظر إليه نظرات فيها من الاسـتغراب والاسـتهوال والإكبار لهذه الجرأة أو لهذا التهـور بمقدار ما فيها من الأسف والحنق والاستنكار، ومالت إليه تقول: ماذا يظن هؤلاء الناس؟

إنهم لن يقولوا إلا أن هذه الفتاة مسكينة مع هذا الرجل! قال متظاهرا بالاعتذار، وقد علم أن المعابثة أنفع أساليب الاعتذار معها فى هذه الحالة: لا عليك أيتها الفتاة المسكينة. فى المرة التالية سأحمل فى يدى كسوة السهرة لأدفع عنك هذه المسبة... إلا أنهما- حين خرجا من الدار- غلب عليها حب التحدى على الرغم من رغبتها فى التستر والمداراة، فخرجت وهى آخذة بذراعه كأنما تغيظه هو أو تغيظ المتفرجين!

وتقرأ أوربا كما تعبد أزياءها ولكن ماذا تقرأ؟ إن شئت فلا مانع من بيرون وشوبنهور، على شريطة أن يوصيها بقراءتهما رجل يفهمها وتفهمه، وأن تقرأ فى ديوان بيرون قصة دون جوان، وأن تقرأ فى القصة أنباء خلاعته وعيثه بين مخادع الجوارى الحسان فى قصر السلطان. أما شوبنهور فيجب أن يكون كله على وتيرة مقاله فى الحب والشهوة بين الذكر والأنثى، وليتشاءم بعد ذلك ما استطاع!

عاطفتها حية غير أنها مشغولة بشاغل واحد، فلا تهمها الشفقة على المظلومين والمنكوبين ولا تهمها المظالم والنكبات، لا لأنها قاسية ولا لأنها مغلقة جاسية، ولكن لأن مكان الشفقة مشغول مستغرق، فلو خلا جانب منه برهة لما استعصى على الشفقة أن تنفذ إليه أو تطغى عليه؛ وكأنها الطيارة المحلقة، وكأن نزواتها هى الدافعة لها فى الفضاء. فإذا دفعتها فهى ناهيك من حركة وصعود وهبوطا! وإن وقفت لحظة فهى حجر ملقى على التراب، ولسان حالها فى العواطف

الإنسانية أن تقول لرجلها: أشفق أنت وتمرد على الظالم وأعن بما تشاء، وأنا وراءك إلى حيث تقودك قدماك.

وهي وثنية في مقاييس الأخلاق كما هي وثنية في التدين، لا تؤمن بالعصمة الإنسانية في أحد ولا في صفة، وشديدة الإيمان بضعف الإنسان مع أضعف المغريات... استطرد الحديث يوما إلى جان دارك فقالت هازئة: كم رجلا يا ترى عرف أنها عذراء؟! فقال لها همام: إنها عذراء بشهادة الطب وشهادة الخواتين الموقرات.

فقالت: لقد شهد لها أضعاف هؤلاء بالمعجزات، فهل تصدق معجزاتها؟

وكان من دأبها أن تحب الغلبة في المناقشة على طريقة كل أنثى مع تنوع الأسلوب والعبارة، فإذا عز عليها الجواب راغت منه وغيرت مجرى الحديث، أو تقول حينا: أسكتني وما أقنعتني! وحينا آخر: ناقشني يا أخي ناقشني. ولكن بحق السماء والأرض عليك لا تكتفني... دع لي يا أخي حرية الكلام!!... فهي تريد جوابا يروقها أو يترك لها باب الكلام مفتوحا بغير انتهاء!

فلما سألته: هل تصدق معجزاتها؟ قال: نعم... أصدق أنها صنعت المعجزات، وجاءت بخوارق العادات، ولكنها معجزات إنسانية لها أسباب إنسانية، وإن تضاربت فيها أقوال المفسرين من المؤمنين وغير المؤمنين. ثم قال: والفرق بعيد مع هذا بين شاهد يقص ما تراه العين

وشاهد يقص ما يخيله له الإيمان... فشاهد العين مصدق. وشاهد الإيمان لا يلزمنا تصديقه إلا إذا جاريناه فى إيمانه!

قالت: هذا قميص الكتاف يا أخى! هذا قميص الكتاف!

ومن الصعب أن تفهم ما يرضيها إذا اتهمت أمامك أخلاق الناس جميعا وراحت تقدح فى دعاوى الصداقة والوفاء والفداء. فليس يرضيها أن تكون على رأيها لأنها تحب الرجل أريحيا ذا نخوة وحماسة وطموح إلى عظائم الآمال والرغائب، وتصديق بالوفاء والفداء. وليس يرضيها أن تناقضها وتضطرها إلى التسليم، لأن الإكراه مكروه على كل حال. ولكنها إذا كانت تجارى طبيعة المرأة فى حب الجدال والثرثرة والعناد فهى تجارى طبيعة المرأة أيضا فى إعجابها بطموح الرجل وصلابته وأحلامه، وربما استراحت إلى الشعور بقوة عقله كما تستريح إلى الشعور بكل بأس فيه، فما كان يدرى همام هل يناقضها أو يجاريها فيما تقول. وتلك حيرة يعالجها من عالج النساء!

قصت عليه مرة قصة صديق لزوجها أرسله إليها «وسطاء الخير» ليسفر فى الصلح بينها وبينه! قالت: فهل تدرى ما صنع؟ إنه جاء يغازلنى وينفخ فى جمرة الغضب بينى وبين زوجى!

ثم قالت: ما أكذب الصداقة فى هذه الدنيا!

قال همام وقد أراد أن يعابثها ويسليها: إن صاحبنا لمعذور. وإن الإغراء بالخيانة لعظيم.. فليت جميع الأصدقاء لا يخونون إلا بإغراء كهذا الإغراء.

ثم ضحك، وضحكت، وتماجنت فى الضحك وراحت تقول له: أراك ضننت على بقميص الكتاف اليوم؟ لا. لا. إننى أريد اليوم قميص الكتاف... قل. قل أليست كل صداقة فى الدنيا لغرض؟ هل يصادق الناس أحدا إلا المال أو جمال أو سلطان أو نحو ذلك من الذرائع واللبانات؟

قال همام: ومن لم يكن له مال ولا جمال ولا سلطان ولا مزية من المزايا فهل هو إنسان يستحق صداقة إنسان؟

فوثبت وصفقت كما يصفق الطفل الأرعن قد ظفر بالأمنية الممنوعة، وجعلت تقول: ها هو ذا قميص الكتاف. ها أنت ذا أخيرا يا بنى، وأقبلت عليه تقبله وتناوشه، وتبذل له ذخيرة من السرور، كأنها فاكهة مترعة برحيقها ليس لها قشر ولا بذور!

وهى على ولعها بحديث الأكاذيب الشائعة فى أخلاق الناس وعودتها إليه آونة بعد آونة لم تنع على الناس أكاذيبهم قط بمرارة الناقم واستخفاف المتشائم، وإنما تتحدث بها كما تتحدث بصحفة من الطعام الشهى لم يتقنها الطاهى... ولا حرج أن تمضى فى حديث انتقادها بعد ازدرادها. فهى لهذا يصح أن تسمى «وثنية» فى تقويم مقاييس الأخلاق، ولا يصح أن تسمى متشائمة أو ناقمة على الناس.

أما مذهبها فى «الكرامة» فمذهب خليق أن يخيف من يحب لها الكرامة، ويود أن يأوى من كرامتها إلى حصن منيع على الطرّاق. وأحسن ما توصف به الكرامة على مذهبها أنها «كسوة اجتماعية» لا يخلعها

المـرء فى المجالس ولا يلبسـها ممزقة أو مرقعـة أو موصومة. فعيوب الكرامة وعيوب الكساء سواء فى هذا القياس!

إذا قيل أمامها إن فلانة أباحت نفسـها لخادمها قالت- وهى تزعم المناقشة حبا للمناقشة-: إن المرأة قد تهفو هذه الهفوة وهى لا تنظر إلى مثـل هذا الرجل إلا كما تنظر إلى حذاء. وليس كل رجل يصل إلى فراش المرأة يسـودها. بل هو قد يكون خادمها فى ذلك الفراش. وإذا قيل لها إن فلانـا ضـرب حبيبته قالت: وهل ضربها إلا لأنـه يحبها؟ إن المرء ليضرب نفسـه فـى الحائط إذا بلغ به الغيظ ذلـك المبلغ، لو كان ضرب النفس يشفى غلة المغيظ!

وإذا قيـل لهـا إن امرأة فى التاريخ أو فى قيـد الحياة تهالكت على اللـذات قالت: إن المرأة لاتتهالك على اللـذات إلا أن تفقد الرجل الذى يفوق اللذة فى روعها. فتحب الرجل لأجل اللذة بدلا من أن تحب اللذة لأجل الرجل الذى تهواه وتوستكين إليه!

وما نفرت قط من مذمة خبيثة عن مبدأ وعقيدة، وإنما تنفر من جميع الأشـياء التى تأباهـا كما ينفر المرء من طعام يعافه: فهى مسـألة ذوق ورغبة، وليست مسألة شرف واعتقاد!

ومثـل هذه الكرامة لن تعصم صاحبهـا أن يقارف أخبث المنكرات، كلما حلت له وغفلت عنه عين الرقيب.

ويحار طبيب الأخلاق كما يحار طبيب الأبدان فى إيواء هذا المزاج إلى

مأواه من الصحة والداء. أفمن كانت كذلك فى نزعاتها وخلجاتها تكون فى رأى الطب امرأة سليمة مستقيمة على سواء الطبيعة؟ إن الإغراق يستلزم الزيغ والاختلال فى التركيب.. ولكن أى اختلال عسى أن يكون فى تركيب الجسم الذى يندمل جرحه بعد يوم، ويقضى النهار والليل فى صبارة الشتاء بلباس الصيف ولا يدرى ما الزكام؟ كل اختلال يجاور هذه المناعة هو اختلال عجيب الجوار عميق القرار.

أكبر الظن أن الفتاة على ما بها من جموح وشطط كانت وشيكة أن تستقيم وتتزن لو رزقت زوجا يوائم شوقها إلى الرجولة ويغلق عليها منافذ الغواية. ولكنها خابت فى الزواج فشقيت، ولجت بها الشقاوة حين كفرت بصداقة الصديقات ومؤاساة الشفيقات، فعاشت فى عالم قد أقفر من جنس حواء إلا أن تكون منافسة مريبة أو عاذلة رقيبة، ولم يبق فيه إلا رجال!

وجوه

ذو الوجهين

منافق؛ وذو الوجه الواحد ميت!

يعيب الإنسان أن يصنع له نفسا غير نفسه ووجها غير وجهه، وأن يبدو للناس بوجهين يلعن أحدهما الآخر، ويعلم هو أنهما- كليهما- ملعونان. ولا يعيبه أن يكون له مائة وجه ينم كل منها على سمة من سماته ومعنى من معانيه، ويعرض لنا من ذهنه

وسليقته وقلبه فى ساعة ما ليس يعرضه فى ساعة أخرى. لأن كل وجه من هذه الوجوه حق وليس بكـذب، وجوهر وليس بطلاء، وصفحة من كتاب لا تتم قراءته إلا باستعراض جميع الصفحات.

ذو الوجهين فى كل وجه من وجهيه كذب وطلاء وذو الوجوه المنوعة السـمات، المعدودة الملامح، المفرقة المعانـى راوية صادق الخبر، يرينا كل يوم بينة جديدة على صدقه، ولونا جديدا من تمامه ونقصه، ونفسا جديـدة فى تعبير جديد. والرجل الـذى لا تختلف له صورة من صورة ولا تمثـال من تمثال هو جمـاد يختلس عنوان الحيـاة. والوجه الذى يصـوره مائة مصور فيخرجون جميعا بطابـع واحد لا يتبدل هو جدار فى هيئة إنسان، ولكنه جدار لا تختلف عليه الظلال والألوان.

وليـس منا إلا مـن يعرف صاحبا يحاول أن يخفـى بعض مثالبه أو بعض سـيئاته ثم يلتقط المصـور التقاطة فإذا هو حاسـر الطبيعة بغير نقاب، على كره منه وعلى كره من المصور. ولعله هو نفسه يرى الصورة فلا يفطن لما كشـفت من أمره، لأنه يفهم إفشـاء الكلام ولا يفهم إفشاء السمات والقسمات.

وليـس من اللازم الـلازب أن يطول الزمن بـين الصورتين المختلفتين للوجه الواحد، فإنى لأذكر أنى رأيت صورا ثلاثا لطفل واحد فى السـنة الأولى من عمره أخذت فى ساعة واحدة فى مكان واحد تذكارا ليوم ميلاده: ترى إحداها فلا تملك أن تقول: ما أشبه هذا الطفل بأبيه، وترى الثانية

فلا تملك أن تقول: ما أشبه هذا الطفل بأمه، وترى الثالثة فتستطيع أن تقول إنه ليشبه أمه كما تستطيع أن تقول إنه ليشبه أباه. ويصدق هذا على كبار السن كما يصدق على صغارها. فلا يندر أن يلتفت الإنسان التفاتة خاطفة على غير قصد منه أمام المرآة فيلوح له شبه من عمومته أو شبه من خؤولته لم يكن قبل ذلك يلمحه فى صفحة وجهه، وقد تنصرم السنون ولا يلمحه مرة أخرى إلا فى مثل تلك اللفتة الخاطفة.

وأعرف أبا مشهورا له خمسة من الأبناء الذكور يجلس كل منهم إلى جانبه فلا تخفى المشابهة بينهما أقل خفاء، ولا يحتاج الناظر إلى فراسة ثاقبة ليعلم من فوره أنهما ابن وأبوه. ثم يجتمع الإخوة الخمسة فلا يبدو بينهم هذا التشابه إلا بفراسة المتأمل، لتقارب الأصل وفروعه وتباعد الفروع متفرقات.

ومما لا ريب فيه أن سمات الأخلاق والأفهام شىء يستكن فى النفس قبل أن يبدو على أسارير الوجوه، وإنها لشىء لا يزول من النفس وإن زال أثره الظاهر فى بعض الأحيان، وإنه على قدر معانى النفس يكون تعدد الملامح وتعدد الوجوه، وعلى قدر تعدد الوجوه يكون الأنس بالمنظر المتجدد والمحضر المتعدد، ويقل السأم ويعظم الشوق والنشاط إلى اللقاء.

وسارة كانت من ذوات الملامح والوجوه اللواتى لا يطالعنك بمنظر واحد فى محضرين متواليين: تراها مرة فأنت مع طفلة لاهية تفتح

عينيهـا البريئتـين فى دهشـة الطفولة وسـذاجة الفطـرة بغير كلفة ولا ريـاء، وتراهـا بعد حين- وقد تراها فى يومهـا- فأنت مع عجوز ماكـرة أفنت حياتها فى مراس كيد النسـاء ودهـاء الرجال. وتضحك ضحكـة فتعرض لك وجها لا يصلح لغير الشـهوات، وضحكة أخرى- وقد تكون على أثر الأولى- فذاك عقل يضحك ولب يسـخر، كما تسـخر عقول الفلاسفة وألباب الشيوخ المحنكين!

هى تارة أم رؤوم تفيض بحنان الأمهات حتى لتوشـك أن تسـع به أطفال العالمين، وحسـبك أن ترسمها هكـذا ولا تضع فى أحضانها طفلا يرضع ولا إلى جانبها طفلا يدرج، لتستحق الصورة عنوان الأمومة. وهى تارة أخرى شـريدة بوهيمية لم تستقر قط فى دار ولا وطن وما استقرت قط مع عشيق.

لها صورة إلى جانب سـرير لو نحيت عنها السـرير جانبا لمثلت لك راهبـة خاشـعة تهم بالصـلاة، أو ضحية من ضحايا الآلهة تسـاق إلى محراب القربان. ولها صورة على سـفح الهرم لـو أخفيت منها الهرم لخلتهـا حورية مخمورة فـى أرض يونان القديمة، تهـم بالرقص فى كروم باخوس.

وكان همام يراقب هذه الشـخوص ويتصفح هذه الوجوه وهو مغتبط تارة ومشـفق تـارة أخرى، ويعزو تقلبها واطرادهـا إلىالفتوة الحية التـى تحبس فى محابس الأفكار والعـادات والتقاليد، فهى أبدا فى

أيـدى العواطف والنوازع كعجينة الخلق المهيأة للصوغ والتركيب فى كل ساعة.

وخطر له أن ينشـــىء حولها رواية مسرحية هى جميع أبطالها وهى البطل الوحيد فيها، تدور محاوراتها على المثال الآتى.

ســارة: إنى لا أرضى أن أصاحبك فـــى الطريق وأنت فى هذه الثياب الفاضحة.

ســارة: وهل تحسـبين أننى أسـر بمصاحبتك وأنت بهذه السحنة العابسة وهذه المسوح المحزنة وهذا الزى الذى يشبه زى الحداد.

ســارة: على رســلكما أيتها الصديقتــان، لا تتخاصما ولا تشــرعا فـــى تمزيق ما عليكما من ثياب. إنها تســتركما علـــى كل حال، وأنتما ضيفتــاى غدا... تحضــران إلى وليمتى وقد شــحذت كل منكما أظافرها لصاحبتهــا! لا عليكما من المصاحبة فـــى الطريق... احضرا من طريقين مختلفــين! ولتكــن كل منكما فى الثياب التى تروقهــا، فأنتما تعلمان أننى أحبكما، ولا أنكر منك يا سارة شفوف الخلاعة، ولا منك يا سارة مسوح الرهبانية!

سارة: وهل عندك وليمة غدا؟ من دعوت إليها غيرنا من السيدات؟

سارة: دعوت سارة و...

سارة: سارة! أخشى أن تكون تلك الفتاة التى لا تتحدث أبدا إلا عن زينتها وجواهرها وحلاقها ومواشطها.

سارة: لا بل هى سارة التى لا تتحدث أبدا إلا عن وليدها.

سـارة: ها أنذا قـد حضرت فى غير الموعد الملائـم على ما يظهر... وآسـف لأنى قطعت عليكن لذة الاغتياب فالغيبة لذيذة. ولا سيما غيبة الصديقات!

سـارة: لم نقل عنك شيئا.. وإنما أردنا تعريفك فقلنا إنها هى سارة التى تحب وليدها العزيز ولا تفتأ تتحدث عنه.

سـارة: وأى عجب فى ذلك. ألا تحب الأم وليدها؟ وهل للمرأة فخر أشرف وأشهى من الأمومة؟

سارة: أخطأت يا صديقتى. إن فخر المرأة جمالها.

سارة: بل فخر المرأة ذكاؤها.

سـارة: بل فخر المرأة من تحبه ويحبها... ويحـى ويحى!... لقد كانت المشاجرة بين اثنتين فما زلنا حتى جعلناها بين أربع!

سـارة: وإن شئتن فلتكن بين خمس... علام تختلفن؟ ألا تسمحن لى بنصيب فى هذا الخلاف؟

سـارة: أهلا بـك يا سـارة...! أخشـى ألا تكون لك فرصـة باقية لخلاف... لقد استنفدنا جميع الفرص بين قائلة إن فخر المرأة أمومتها، وقائلـة إن فخر المرأة جمالها، وقائلة بل فخرها ذكاؤها، وقائلة لا هذا ولا ذاك. بل فخرها حبها وغرامها... فماذا أنت قائلة بعد ما قيل؟ لقد ضيعت الفرصة يا مسكينة!

سـارة: كلا يا صاحبتى، لا تتعجلى بالرثاء لحالى. فقد نسيتن فخرا للمـرأة لا ينقطع عن الأمومة والـذكاء ولا الجمال ولا الغرام. ولا أدرى كيف نسينه هذا النسيان؟ فخر المرأة عذابها يا أخوات!

سارة: صدقت يا صديقة!

سـارة: ماذا تقولين؟ صدقت؟ يا للعار. هذا كلام العجائز، هذا حديث خرافـة. هذا مذهب عتيق أقـدم من حواء والحية. وإنما خلقنا للسـرور نأخذه ونعطيه. فمن نذر المرأة للعذاب لا أصاب فى الدنيا غير العذاب!

سارة: ليسقط التمرد!

سارة: ليحى التمرد!

* * *

ثـم يتقاربـن ويتلاحمـن ويتسـربن كلهـن فـى شـخص واحد، يبقى على المسـرح فى ثيـاب الشـرطة، ويصيح: أين المشـاجرة وأين المتشاجرات؟!...

* * *

وقـد تلا همام على سـارة هذا الفصيل الصغير فاسـتملحت الفكرة وصفقت لها طويلا.

قال همام: كفاية. لقد ظفرنا بتصفيق الممثلة الوحيدة للرواية.

* * *

ولم تكن هى فى بادئ الأمر تفطن لهذا الذى يلاحظه همام من غرائب شخصها وطرائف ملامحها؛ إنما كانت تعرف كيف تبدى بضاضتها فى الثياب البيضاء، وكيف تخيل لك النحافة فى الثياب الدكناء أو السوداء؛ وكيف تصفف طرتها بما يظهر من وجهها سمات الطفولة. وكيف تصففها بما يكشف منها جانب الذكاء ويزين القسمات بإشراق جبينها الوضاء، وتلك صناعة تحذقها كل امرأة تلتفت إلى محاسنها وتسمع رأى الرجال والنساء فيما يعجبهم من مرآها. لكنها لم تكن تلتفت إلى ما وراء ذلك من تقلب المعانى وتعدد الشخوص.

فإنهما لفى يوم رائق صاف جميل الأصيل وهمام يتأمل وجهها الذى تبدل الأشعة والظلال من معانيه كل لحظة، وتبدل العواطف والخلجات من ملامحه كل فترة، إذا به يهتف فجاة بكلمات لا مقدمة لها ولا سابقة لتفسيرها: كم لك من وجوه يا سارة!...

فانتفضت فى ذراعه، وحسبت أنها مقدمة لاتهام وملاحاة، وهما يستمرآن نعيم ذلك اليوم الرائق الصافى الجميل، وقالت: ماذا تعنى؟

قال: هدئى من روعك. إنما ثناء أردت لا ملامة، وأخذ يشرح لها ما يعنيه كأنه يحدثها عن امرأة غائبة او عن شخص من شخوص الروايات، وهى تصغى إليه مسبوتة، ثم مستريحة، ثم مبتسمة، ثم طروبا متهللة، وهو يرى مصداق ما يلاحظه عليها ويحدثها عنه، حتى كان ختام الحديث اقتراب الشفاه بداهة وطواعية.. ثم نكتة من نكاتها

التـــى لا تخذلها فى أمثال هذه المواقف... ألقتها إليه وهى تتناءى عنه مرحة ضاحكة: احمد ربك. عندك من ســارة المظلومة حريم كامل، فلا تشكر نفسك كثيرا على الوفاء!

كيف عرفها؟

ترتيب الحوادث أن تنتهى ثم نكر راجعين للسؤال عن بدئها. وسبيل التواريخ أن تنطوى الســير وتنصرم الدول ثم تنقضى مناشــئها وأسباب ظهورها. فنحن لا نحيد عن مجرى الزمان حين نعرف الساعة كيف تلاقت سارة وهمام، بعد أن عرفنا منذ برهة كيف كانت القطيعة وكيف كان اللقاء الأخير.

ولم يقصد همام أن يلتقى بســارة ولم تقصد ســارة أن تلتقى بهمام... وإنما جاء اللقــاء كما تجىء معظم الحوادث الكبرى فى معظم التواريخ والسير: من زواج وفراق ورحلة واختيار مساع واقتحام غيوب، مصادفة لا يسبقها عمد، وعرضا لا يمهد له بتفكير.

خــرج همام يتمشــى فى الخلاء ضحوة من ضحــوات الخريف التى تبتهج فيها الشــمس فى هدوء، ويرقص فيها الهواء فى حنين، ويرق فيها الجو فى تشــوف وارتقاب، وتطرح فيها النفس أعباءها كما تطرح القافلة أحمالها عند مشارفة الواحة المبشرة بالماء الغزير والظل الظليل، ريثما تنهض بالعبء من جديد.

ماذا عسى أن يكون العبء المنظور؟

لا تقول الشمس، ولا يجيب الهواء، ولا يشف عنه الجو، ولا تحفل النفس ما يكون، حتى يكون... إن كان!

ويعود همام من رحلتـــه وقد علق جميع همومه وأجل جميع نياته، وأصبح جزءا من الشمس والهواء والجو، ولم يعد جزءا من عالم الإنسان. وألفى نفســه وهو عائد إلى منزله على مقربة من مسكن صاحبه الأستاذ زاهر، وهو رجل ظريف طيب النحيزة من أولئك الذين يرضون فيسلون ويطربون، ويســخطون فيكوتــون أدنى إلى التســلية والطرب، لطرافة ما يرتجله فى هذه الحالة من مفارقات اللذع والتنديد.

وكان يومئذ يســكن فــى بيت من بيوت الحجرات المفروشــة تديره خائطة فرنســية ليكن اسمها «ماريانــا»... فدلف همام إلى المنزل يزور صاحبــه ويقضى معــه فترة يقفــزان فيها بين معــارض الحديث التى لا وصلة بينهما، ويضحكان ضحــكا كثيرا، إن لم تكن فيه فكاهة عالية ففيه ولا شك تمرين نافع للرئتين.

ووجــد «ماريانا» فى فنــاء الدار تطعم الديكــة الرومية التى عندها صحفة من «المكرونة» البائتة، وعندها فتاة مليحة يصعب تقدير سنها، لأنها تصلح للعشــرين كما تصلح للخامسة والعشرين، وتسمى آنسة كما تسمى سيدة، وهى مشغولة بكساء تقلبه وتمعن النظر فيه.

قال همام: أسعد الله الصباح. أين زاهر يا مدام؟

فردت تحيته بمثلها، وقالت: أوَ لا نراك إلا زائرا لزاهر؟ إنه خرج منذ هنيهة على أن يعود بعد قليل.

والتفت همام إلى صحفة المكرونة قائلا: أرى أن الديكة اليوم إيطالية وليست رومية!

فلم تجب ماريانا بغير ابتسامة عريضة، وإنما أجابت الفتاة قائلة: إن كان الجنس بالطعام فالديكة هنا عالمية لا تدين بجنس من الأجناس: مصرية إن أكلت الفول المدمس، وإنجليزية إن أكلت البطاطس، وهندية إن صبرت على الصيام الطويل!

فنظرت إليها «ماريانا» نظرة العتب المصطنع، واستظرف همام جوابها واستغرب مشاركتها في الحديث في وقت واحد، ورحب مع ذلك بهذه المشاركة التي أحس لتوها أنها وافقت هواه، وأنه كان يسوق الحديث إليها إن أبطأ المساق.

قال همام: إن الآنسة تعرف كل شيء عن ديكة البيت وتذبذبها في الوطنية، ولكني لا أذكر أنني رأيتك هنا يا آنسة قبل الآن.

ماذا يقول؟ أيقول لا أذكر أنني رأيتك؟ أكان من الجائز إذن أن يراها ويهملها وينسى أنه رآها؟

أحس همام أيضا أن الكلمة لم توافق هواها، وسمعها تجيب بشيء من الامتعاض المكتوم كأنها تخاطب نفسها:

ولماذا تدعوني يا آنسة؟ أتستصغرني؟ إنني ربة بيت، وأم!

* * *

يا للمرأة! أتريد أن يفهم أنها غضبت لأنه دعاها يا آنسة؟ لا والله! لقد كان بريق الرضا بهذه التسمية يومض فى عينيها... إنما عز عليها أنه جعلها شيئا مهملا يجوز أن يراه مرة أو مرات ثم ينساه، فأسفرت عن الغضب وسترت السبب، وتوارت وراء حجاب المجاملات والألقاب، فأحب أن يغيظها قليلا وعاد يقول: ولكن السيدات يا آنسة.. يلبسن فى أصابعهن علامة تسمى خاتم الزواج. فأين هذه العلامة؟

قالت: ذلك شرح يطول.

قال: عسى أن أسمعه فى وقت قريب.

ثم اقتضب الحديث والتفت إلى شيخ متهدم يعبر الفناء، فسأل الخائطة: أهذا ضيف جديد عندك يا مدام؟

فزمت شفتيها لا يدرى أهى مشمئزة من الرجل أم راثية لحاله، وقالت: ضيف ولكن لا أظنه طويل المقام. ألا تراه يتعثر بقدميه؟

وفى أقل من دقائق لا تتجاوز الخمس عرف همام والفتاة كل ما تعرفه «ماريانا» عن الرجل وعاداته وأطواره، وثروته التى تربى على الألوف، ولا وارث له ولا قريب ولا قريبة تلوذ به فى شيخوخته الكئيبة.

قال همام: وما حاجته إلى البحث عن وارث؟ إن الورثة يبحثون عنه ولا يقصرون «عند اللزوم».

قالت: ألا يحتاج إلى من يعوله ويواسيه ويحف به وهو يودع دنياه؟

قـال همام: إن كنت يا ماريانا حريصة علـى خروجه من حجراتك فانصحى له بكتابة إعلان فى الصحف السيارة، يقول فيه إنه يملك كذا مـن الألوف ويحتاج إلى كذا من الإخوان وأولاد الأعمام وأولاد الأخوال، وانظـرى كيف يضيـق بيتك عن الطالبـين والطالبات ممن «آنسـوا فى نفوسهم الوفاء بالشروط».

فنسـيت الفتاة غضبتها الصغيرة واندفعـت ضاحكة وما زالت حتى أجـبرت هماما- وهـو فى غنى عن الإجبار- أن يحـول الحديث إليها قائـلا: وأنت يا سـيدة. نعم أنت يا سـيدة فى هذه المـرة: لأية قرابة ترشحين نفسك إذا أعلن الرجل إعلانه؟

فهزت رأسها تفكر. ثم قالت: أوفرها نصيبا فى الميراث؟.

قال: لا تكونين إذن إلا زوجة؟

قالـت ما معناه: فـأل الله ولا فألك. أى غرام غرامك هـذا بذكر الزواج والزوجات والأزواج؟.. ثم رفعت رأسها متأففة كأنها تطوى حديثا لا تحب أن يجرى لها على لسان، وهى فى الواقع تود لو أفرغت كل ما فى جعبتها من ذلك الحديث، أول ما تسعف المناسبة وتبدر بادرة من إغراء.

قـال همام: لا تؤاخذينـى أن ذكرت الزواج مـرة أو مرتين، فإننى لم أتزوج قط ولا خبرة لى بهذا الجانب من مزعجات الدنيا...

قالت: أصحيح؟.. لقد أراحـك الله. فبأى جانب من مزعجات الدنيا أنت خبير.

فأسرع همام قائلا: لذلك شرح يطول!

قالت: يا لك من منتقم... على أنك تستطيع أن تطمئن كل الاطمئنان، فإننى لا أكلفك عناء هذا الشرح ولا أستطلع دخائل شأنك... لست فضولية بحمد الله.

قال: وإذا كنت أنا فضوليا؟

قالت: إذا يختلف الأمر.

قال: كيف يختلف؟

قالت: يلوح لى أنك كما وصفت نفسك: أنت فضولى ولا فخر.

قال: ليس مع كل الناس.

قالت: تحيات وغزل..! وعما قريب: عيناك ووجنتاك وأهواك ولا أنساك، إلى آخر هذا الموال المحفوظ.

قال: ولماذا عما قريب!.. الآن!

قالت: أنت عجول، وأنت جرىء أيضا!

قال: إن وعدتنى أن أجنى للصبر ثمرة. فأنا أصبر من أيوب، قوليها كلمة واحدة وأنا لا أتعجلك شيئا، وأنصرف الآن!

قالت: وصاحبك الذى تسأل عنه؟

قال: ها... يلوح لى أننى أعجبتك! وأنك تستبقيننى!

قالت: لولا أنك تمزح لقلت إنك مغرور غروركم كلكم معشر الرجال. لا تتكلم الواحدة كلمتين مع واحد منكم حتى يحسبها مجنونة بهواه.

قال: أو يحسب أنه مجنون بهواها!

قالت: طيب والله...! لقد قطعنا شوطا بعيدا جدا فى نصف ساعة... و أدرى مـا خطب «ماريانا» سـامحها الله؟ أين ذهبـت وتركتنا؟ ألعلك علىاتفـاق معها أن تهيىء هذا اللقـاء؟.. ما فى ذلك من عجب، فهكذا تصنع الخاطئات فيما يقال.

وسمعت «ماريانا» اسمها فعادت تهرول وتتساءل: ماذا تقولين عنى يا سارة؟

قال همام: إنها تتهمك بأنك تدبرين عن عمد خلوة غرامية بين هذه الديكة وهذه الدجاج.

قالـت ماريانا: أنا أعلم علـى الأقل أن الدجاج لا تحتاج إلى من يدبر لها الخلوة مع الديكة.

قالت الفتاة: قاتلك الله يا عجوز السوء. لماذا تتنصلين من التهمة؟ أمـا كان الأولى أن تتمهلى لمحة لعلى كنت انوى ان أشـكرك على ما صنعت؟

فطاش الفرح بهمام، وأوشـك قلبه أن يفلت من نياطه، وانتشى نشوة خمسين كأسا فى رشفة واحدة، وقال وهو يهجم على «ماريانا»: بل دعى لى أنا أن أشكرها. إننى أقبل وجنتها... إننى ألثم فاها... وصنع ما يقوله قبـل أن تفيق «ماريانا» من دهشـتها وقهقهتها. ومـال إلى الفتاة قبل أن تدرى ما هو صانع قائلا: وأقبلك أنت أيضا إكراما... لماريانا. وقبلها.

ثم جلـس مأخوذا بما حدث يتوقـع ماذا تكون الكلمـة الأولى التى تلفظها الفتاة: أتشتم؟ أتصطنع الغضب؟ أتنطلق من المنزل؟

وكأنما كان التوقع هو شغله الشاغل فى حينه دون ما يتبعه من ثورة أو مسـامحة، فاسـتطال الأمد وما انقضت غير ثوان فى توقع ما يكون. وزاده فرحا على فرح أن شيئا مما توقعه لم يحدث... وأن كل ما حدث أن الفتـاة بهتت وراحت تقول شـيئا لابد أن يقـال، فقالت فى صوت خافت: لقد آذانى شاربك الطويل.

وتم التعارف بالأسماء.

واسترسل الحديث أصداء لا يقصدها القائل ولا يصغى إليها السامع، لحظة يسـيرة ثم انقلب الفرح غما ثقيلا بغير منفـذ وبغير دلالة. فإن الفتـاة لبثـت تتكلم ويبدو من عينيها أنها تفكـر فى غير ما تتكلم. ثم خرجت ساهمة بغير استئذان إلا حين قاربت الباب، فقد انثنت تحيى هماما تحية من يؤدى «واجب اللياقة» لا تحية من يجامل فى وداع.

قال همام: ما معنى هذا؟

قالت «ماريانا»: لا عليك منها. إنها ستعود يوما ما لا محالة.

قال: لست عن هذا أسأل؟ فهل هى غاضبة؟

قالت: مم تغضب؟ أمن القبلة؟ فلم لم أغضب أنا؟!

قال: خيبة الله عليك يا عزيزتـى ماريانا... دعينا من غضبك أنت ورضـاك، فإنها هى القبلة الأولى والأخـيرة بغير مراء! ولئن رضيت

عنهـا فما أنا براض... ولكن الذى يعنينى ألا تكون قبلتها هى القبلة الأولى والأخـيرة. فما رأيـك؟ قالت: ابغ لك مستشـارا غيرى. إننى أعرف كيف أوفق بين الكسـوة وصاحبتها. ولا معرفة لى بالتوفيق بين رجل وامرأة!

فلم يشـأ همام أن يطيل الـكلام، ولم ينتظر صاحبه الذى لم يعد ولم يكن يبالى فى تلك السـاعة أن يعود. وخرج منقبضا متحاملا يلوم نفسه على خروج الفتاة ولا يلوم نفسه على تقبيلها. كأنما كان يستطيع الفصل بين الأمرين!.. وعادت القبلة إلى شـفتيه كأنها طيف يرف على مهاده الأول. حتى لقد أوشـك أن يضم شـفتيه ليلامس ذلك الثغر الذى لاح له أنه ينضغـط وينضغط من لينه وطراوته إلى غير نهاية، وسـرت لذعته الباردة كلذعة النعناع الذى هدأت ثورته وبقيت ذكراه، فازداد غما على غم. ولعن ذلك الشـيطان الكامن فى أعماق كل نفس يثير لواعجها وينكأ جراحها، فى حيثما احتاجت إلى التهوين والنسيان!

وذهب إلى المكتب فتلقاه الخادم قائلا: إن سيدة سألت عنك بالتليفون. فلم يعره كبير التفات.

وعاد الخادم بعد فترة يقول: إن سـيدة على التليفون تسأل عنك... وأظنها السيدة الأولى.

فنهض همام إلى التليفون وآخر ما فى ذهنه أن المتكلمة هى فتاة ذلك الصباح، وقال بغير اكتراث: من المتكلم؟

قــال صوت كصوت الفتاة بعد التحريف المعهــود فى أداة التليفون: ألا تعرفنى؟

قال: عرفتك الآن. أنت سارة ولا ريب!

ولم يلاحظ هو ولا لاحظت هى أنه حذف اللقب وخاطبها باسمها كما يتخاطب الأصدقاء الأقدمون!

قالت: أوكنت تنتظر هذه المحادثة؟

قــال: لا أزعــم أننى كنــت أنتظرهــا، ولكنى أحســب أننى كنت أتمناها!

قالت: إذن هل تحب أن أراك الليلة فى دار الصور المتحركة؟

قال: بل أحب أن نلتقى على انفراد. فذلك أروح وأسلم.

قالت: إنما عنيت أن تشهد الرواية لأنها تشبه قصتى تمام المشابهة. ويجوز أن تكون القصة مما يعنيك.

قال: لأن أسمعها من لسانك خير من أن أشهدها مع مئات.

قالت: فأين إذن؟

قــال: ما رأيــك فى حديقة الأهرام؟ إنها مكان قلما يغشــاه أحد فى هذه الآونة، وسنلتقى فى زاوية من الطريق ونستقل سيارة من هناك إلى الحديقة، وأسمع منك أو أقول لك كل ما تحبين.

* * *

كان أول مـا فاهت به وهى تجلس إلى جانبه فى السـيارة أن قالت: لابد أنك حسبتنى مجنونة وقلت فى خلدك: ما هذه الرعناء التى تقبل التقبيـل، ثم تخرج مغضبة، ثم تتكلـم بالتليفون، ثم تحضر إلى الموعد طائعة، فماذا حسبتنى بربك؟ قل لى ولا تكذب!

قال: على كل حال لست بآسف لجنونك.

قالت: وأنت يا حضرة العاقل اللبيب الرشيد أما حاولت أن تفهم لماذا كان خروجى بهذه المفاجأة قبل أن ترمينى بالجنون؟

قال: مستفهما: أللأمر علاقة بماريانا؟

قالت: هو ذاك. فلو أننى أطلت المكث لباخ الغضب بعد ذلك ولو أننا تواعدنـا أمامها لوقعت فى براثنهـا بلا رحمة، فإما أن أطيعها فى كل ما يعن لها، وإما التهديد والإنذار.

فربـت على خدها كأنها طفلة أجادت درسـها. وقال: إنك لحصيفة يا هذه التى تتطلع منى إلى تهمة الجنون. ولكنها حصافة مخيفة!

ثـم حكى لها ما قالته ماريانا بعد انصرافها، وكيف أنها لم تغضب حين قبلها! فكيـف تغضب الفتيات الماجنـات؟ فأخذت تضحك حتى اغرورقت عيناها بالدموع. وثابت إلى الحصافة فأوصته أن يزور «ماريانا» فى اليوم التالى ويثابر على سـؤالها بضعة أيام. ثم ينسـى المسألة كأنه ألقى بها فى ذمة المصادفات.

وانطوت المسافة إلى حديقة الأهرام بمثل لمح البصر، وزعم همام وهو يناول السائق أجره أن سيارته أسرع ما أنجبته المصانع الحديثة، وأنه حرام عليه ألا يشترك بها في سباق السيارات.

وخف كل شيء في الدنيا حتى أشفقا أن يذهل قانون الجاذبية عن واجبه المرسوم، وشعرا بهذه الخفة من حولهما ولا سيما حين بصرا بالمكان خاليا من كل إنسان. فانطلق الكلام كأنه ثرثرة الأطفال، وانبعثا معا في خلق جديد.

وطلبا الطعام فظهر لهمام أن صاحبته من صاحبات النظام المتحذرات من كل ما يجلب السمنة في طعام وشراب.

فصدفت عن كل ما اقترحه عليها إلا صحفة شواء لا تشبع؛ فأراد أن يحذرها من القسوة على جسدها، وقال لها: إن بعض الأجسام إذا خف لم تكن خفته على استواء واحد. فيخف هنا ويسمن هناك ويشوه من حيث يراد له حسن الهندام، ولا ينال أصحابه إلا الجوع والندم!

فنظرت إليه بعيني طفلة تخاف، سألته مستوثقة: أحق ما تقول؟

قال: حق كل الحق. وسأريك إذا زرتني في المنزل صور التماثيل التي يعدونها في العالم بأسره نماذج لجمال الأنوثة. فإن تماثيل الزهرة التي صنعها اليونان- وهم أساتذة الذوق السليم- ليست على نحافة ولا دقة في الخصور والأطراف، ولكنها مثال الجسم المتين المنسوق. وسيفسد علينا سماسرة البدع الحديثة تنويع الجمال في بنات حواء. فأين نرى

البضاضة والسـوق إذا أصبح النسـاء وكلهن نحيفات هزيلات؟ وكيف تتعدد القوالب إذا كانت المرأة لا تخلق لنا إلا فى قالب واحد؟

سرها ما سمعت فسألته عفوا: أيعجبك إذن هندام جسمى على ما هو عليه؟

قال متماجنا: ومن أين لى أن أحكم؟

ثـم أحجم عن التمادى فى هـذه النغمة، وأيقن أنهما فى هذه الخفة التى يشـعران بها ليسـتطيعان أن يتحدثا عن المـوت كما يتحدثان عن الرقـص واللهو والمجانة، وأحب أن يتحـول الحديث إلى قصة الزواج التـى وعدته أن تقصها عليه، والتى يتوقف علـى فهمه إياها أن يفهم مدى العلاقة التى ستجمعه بهذه الفتاة الجالسة فى تلك الساعة أمامه. فقال وهو لا يحذر من تنغيصها باسـتطراده: إن كنت لا ترضين زوجا بالتماس النحافة فعلام كل هذا العناء؟ أهناك رجل آخر؟

وصـح ما قدره همام، فكان جوابها على نغمة الخفة التى شملت فى تلك السـاعة كل شىء، وقالت: أو تحسـب أن المرأة لا تتزين إلا لزوج أو حبيـب؟ إنها لتتزين لنفسـها. وإنها لتتزيـن للرجل الذى فى عالم الخيال، ولو لم يكن له فى عالم الواقع وجود.

واسترسلت تتهكم كأنما سألت نفسها وهى تسأله: أأرضى زوجا؟ ألا ليت هذا كل ما يعنينى!... إذن لأكلت قنطارا من الأرز والزبدة كل يوم!

واجتازت النقلة بين إرضاء الزوج وقصة الزواج فى جملة أو جملتين.

ثم انقضى نصف ساعة علم فيه همام صفوة ما أرادت أن يعلم. فلو سأل سائل: أصدقها فى جميع قولها. أعذرها فى جميع فعلها؟ لكان من الصعب عليه أن يجيب بالإيجاب.

بيد أنه أدرك مما سمع أنها طفلة فقدت رحمة الأمومة، ونمت وهى لم تعرف إلا جماح الحيوية العارمة، لا تمسكها هداية أم ولا تقوى على حبسها التقاليد الضعاف، مع ذلك الذكاء الوقاد الذى لا تخفى عليه خافية الموانع والمحظورات، وأنها لو سيقت إلى زوج «يملأ عينها» ويحقق معنى الرجولة فى رأيها وعاطفتها لاستقرت بعض الاستقرار وقنعت بعض القناعة. ولكنها أخطأت حظها من الزواج وبرمت بفراغ قلبها فلم تعذر الدنيا، والتمست لقلبها وحده جميع الأعذار!

قالت وقد سردت له قصتها: أصغرت الآن فى نظرك؟

قال: أمنى تطلبين الحكم؟ أنا حاكم مغرض فلا تنفعك الشهادة منى، غير أنى أقول إن الذين ينصفونك فى الدنيا قليلون.

قالت: لا حاجة بى إلى إنصاف الدنيا. فلتحفظه لمن يطلبونه.

* * *

ولقد رجعا من الحديقة إلى الجيزة مشيا على الأقدام لم يتعبا ولم يشكوا طول الطريق. وجاء الترام فركبت فى مقصورة النساء وركب مع الرجال.

وكان الموعد الثانى فى بيت همام.

أيـــام

أجل هـــى فتاتى لا مراء فيها. ولئن خشـــيت حبا فإن هذه هى الفتاة التى يحق لى أن أخشى حبها وأخشاها.

سنحت هذه الخاطرة فى حدس همام مع سنوح سارة فى أول الطريق طفرة واحدة. وكان همام ممن يقيســون ارتقاء المرأة بسلوكها فى مسألة المواعيد... فأبغض النساء إليه المرأة التى تحسب سرور الرجل بلقياها سببا كافيا لتنكيده بالانتظار وتكديره بالإبطاء فى الحضور إلى الموعد، ولو كان فى وسعها أن تسبقه إليه... وعندها أنه ما دام راغبا فى لقائها فـلا يصح أن يهنأ بهذه الرغبة خالصة ويســعد بهــذه المتعة صافية، وعليــه أن يبذل ثمنها نكدا لا ضــرورة له وغصة لا حاجة إليها، وهو صاغــر راغم يحــرق الأرم ولا يعرف له حيلة غير الإنابة والتســليم. وإلا فماذا هو صانع.

وجــواب «ماذا هو صانع؟» يختلف باختلاف الرجل واختلاف أنواع الهــوى. أما جوابهــا عند همام فهو الانتظار خمس عشــرة دقيقة على الأكثر ريثما ينقضى أقصى المدى المفروض لاختلاف الساعات فى التقديم والتأخير. ثم ينصرف ولا يســأل عن العاقبة، إلا إذا اتضح له بعد ذلك أن العذر مقبول.

فلما رأى سـارة- وهو يراقب الطريق من وراء النافذة- قد أقبلت فى أول الطريـق قبل الموعـد بدقيقتين أو ثلاث، ولاحظ للمـرة الثانية أنها تتحرى الدقة فى رعايـة المواعيد، فرح بمعرفتها ورحب بالعلاقة بينه وبينهـا. وأحس فى حينها أن هـذه العلاقة تنشـب جذورها فى فؤاده فيتبعهـا ما لابـد أن يتبعها من لواعج ونكبـات وفواجع، وأيقن أن هذه الفتاة تفهم كثيرا جدًا. لأن الفتاة التى تفهم أن لها قيمة غير قيمة الدلال المصطنع، وأن العاطفة أنفس من أن تشـاب بالتنكيد والتكدير لغير داع- لهى صاحبة ذكاء مطبوع يفقه قيمة الزمن وقيمة الشعور وقيمة السرور، ولا يقتصر ذكاؤه على النظر إلى عقربى الساعة لإدراك الميعاد!

وفى الحق أن سـارة قد بهرت هماما بأشياء كثيرة فى أول زيارتها لمنزله غير رعايتها للمواعيد.

فلو كانـت تعرف ما يروقه ويسـتهويه من النسـاء معرفة تفصيل وتدقيق لحسـب أنها تجـوز امتحانا عسـيرا وتتعمـد أن تخرج منه بالتزكية التى ليس بعدها تزكية، والشهادة التى ليس فوقها شهادة.

هـو قليـل المـرح فيروقه من المـرأة أن تكـون مرحة بغـير تكلف ولا مبالغة، ويسمى المرح الذى يزين المرأة ويشوق الرجل مرحا «موقعا» تشبيها بالغناء الذى ينطلق انطلاقا وينبعث انبعاثا ولكنه يقف حينما يحسـن به الوقوف، ويسـكن حينما يطلب منه السكون: يقف ويسكن لا على اقتضاب موحش وانقطاع ناشز، ولكن على نغمة تفصل اللحن من

اللحن، أو على قافية تختم البيت بعد البيت، فهو الوقوف الذى يريح ويشوق ويزيد لذة الإيقاع وطرافة السماع!

وهـو يحب من المرأة الزينة التى تغرى من يبصرها إغراء لا يخفى، ولكنها لو أنكرته وزعمت أنها لم تتعمده ولم تفكر فيه لما اسـتطاع أحد تكذيبها ببرهان.

وهو يحب المـرأة التى تدرك الفكاهة ويكره التى تتخذ من فكاهتها صناعـة أو معرضا مفتوحا فى كل سـاعة، وأقرب دليل عنده على اتفاق المزاجين هو دليل «نيتشـه» الذى يقـول إن الضحك من نكتة واحدة هو العنـوان الواضح على تقارب الضاحكين فى المزاج والتفكير، وما انفصل اثنان بفاصل هو أبعد من ابتعادهما فى تمييز النكات.

وهـو يحب ربـة البيت التى تكـون أول خادمة فيه لأنها سـيدته الوحيدة، ويحتقر المرأة التـى تأنف من تلويث يديها فى مطبخها كما يحتقر الرجل الذى يأنف من تلويث يديه فى حقله أو حديقة داره.

وهو يحب المرأة التى تسـتطيع أن تكون «إنسـانا» فى بعض الأوقات بمعزل عـن الأنوثة والذكورة، فـلا تكون الأنوثـة الحيوانية هى كل وظيفتها فى الحياة.

ولقـد تجلى له كل أولئك من سـارة فى أقل من سـاعة: يوم جاءته فى أول زيارة. جاءته فى زينة تلفت العين إلى كل مزية فى جسـدها، ولا تلفت النظر إلى عيب فى نفسها.

ولم يكد يستقر بها المجلس حتى نهضت إلى أثاث الحجرة تضعه فى مواضعه التى تهواها، وإلى جوانب البيت تعيد تنظيمه على النحو الذى تود أن تراه، وإلى المطبخ تجول فيه بنظرة فاحصة تدرك لأول وهلة كيف طهيت كل صحفة، وكيف أعدت كل طبخة، وكيف لوحظت النظافة فى التحضير والغسل والتجفيف.

وحان وقت المائدة فقدم لها «الديك» قائلا: هذا اعتراف بفضل الديك فى تعارفنا، وتمهيد محادثتنا الأولى.

فما أسرع ما قالها حتى بادرته متهانفة: لا أحب يا صاحبى أن تعرف لى فضلا على هذه الطريقة!

فطرب للنكتة ووجم فى وقت واحد، ولو كان يتوقع عند فتاة صغيرة هذه الفكاهة الماضية لاحتراس بعض الاحتراس. ولكنها فاجأته بها فوجم ولم يسعه إلا أن ينقذ نفسه وهو يردد فى شىء من التلعثم: إن كنت لا تأبين أن أمزجك بدمى ولحمى وأن أجعلك جزءا منى فالطريقة لا تهم، وأنت أكلة شهية تطيب لى بغير حاجة إلى السكاكين والقدور!

وكان حديثها على المائدة- وقد استغرقت ساعتين- على هذه الوتيرة من أمتع وأفكه ما تكون أحاديث الموائد.

لاحظت أنه لا يأكل من صدر الديك ويقصر اختياره على الجناحين والوركين. وقالت: كان من حقنا أن نتزوج، فنحن زوجان طبيعيان: أنت لا تأكل الصدر وأنا لا آكل غيره، فلا يشجر بيننا نزاع!

قال: عفو الخاطر غير عامد لما يقول: هذا مذهب شـوبنهور منقولا إلى المطبخ!

وأحس أنه أقحم اسم شوبنهور فى غير مقحم؛ أعلى المائدة ومع فتاة يدار ذكر هذا الفيلسوف المتشائم عدو النساء؟

وإنه ليهم بتوبيخ لسانه والتراجع إلى موضوع غير هذا الموضوع الذى أثاره، وإنه ليريد أن يأخذ عليها سـبيل السؤال عن شوبنهور ومذهب شـوبنهور إذا هى تلاحقه قائلة: نعم، القصير يطلب الطويلة والأبيض يطلـب السـمراء، والبدين يطلب النحيفة، ومن يـأكل جناح الدجاجة يطلب من لا تأكل الجناح... هذا تطبيق صحيح لمذهب الفيلسوف.

فراعه تعقيبها وسرعة التفاتها إلى «محل الشاهد» كما يقولون أضعاف ما راعته نكاتها، ولمحت هى دهشـته فاستطردت تقول: على رسلك! لا تخف ولا تجفل! فلسـت بحمد الله فيلسـوفة، وما قرأت شوبنهور إلا لأن «أحدا» أرادنى على قراءته، ولأن تفهيمه إياى كان ذريعة اللقاء بيننا، وما كان بالجائز أن يحضر إلى ليفهمنى رواية أو مقالة ممتعة... فلـم يعد لنا بد من الفلسـفة وأمرنا إلى الله! فأغـرب همام فى الضحك، لأنه تخيل شوبنهور العظيم بوجهه العبوس وعينيه الظريفتين اللتين تبرقان من الحرد والسخرية وهو يسمع بأذنيه كيف انتقمت منه امرأة وهزئت به، وسخرت فلسفته لغرامها.

وأثنـى همام على صراحة سـارة وقلـة دعواها، واطمأن إلى سـياق

الفلاسفة والشعراء فقال: الآن آمنت مرة أخرى أن صديقى «هينى» خبير بالنساء فى جده ومزاحه...

قالت: ومن صديقك هذا هينى؟

قال: لا تتهيبى. فليس هو بفيلسوف مغلق، ولا هو بالكاتب الذى يحوجك إلى ترجمان أو مفسر، إن حلا لك أن تقرئيه وحدك فهو شاعر سلس سائغ، وما أحسب له نظيرا فى الدعابة وخفة الروح.

قالت: أصحيح؟ وماذا قال عنا معشر النساء هذا الشاعر الظريف؟

قال: إنه ضجر من سيدة دعية لها عين واحدة تتطفل على الأدب فكتب عنها يقول: كل امرأة تكتب فإنما تتجه بإحدى عينيها إلى القرطاس وبالعين الثانية إلى الرجل... ما عدا فلانة طبعا... فإن لها عينا واحدة كما يعلم القراء.

فراقتها غمزة الشاعر للمرأة الدعية، وقالت: أما من جهتى أنا فإنى لأقر وأقسم بين يديك وبين يدى الله إن هينى لظريف وإنه لصادق، فما تقرأ المرأة إلا عن رجل أو بسبب رجل، وكل ما عدا ذلك كذب وادعاء.

وتشعب الحديث، وتفتحت مغاليق الأسرار من الجانبين، وفى غير مناسبة ظاهرة سألته وفى عينيها خبث كخبث الأطفال المناوئين: كم عمرك يا همام؟

قال همام: دعى هذه المحرجات يا بنية. فإن أبيت إلا الإلحاح فسأخبرك على شريطة واحدة، وهى أن تخبرينى أنت- بداءة- لماذا تسألين؟

وقالت: ولم؟ أيتغير عمرك بتغير أسباب السؤال؟ على أننى لا أنوى أن أدعـك تطيل التخمين، وأريد أن أفرض لك اثنتين وثلاثين سـنة إذا كنا متفقين فى نسـبة السـن كما اتفقنا فى غيرها من المقارنات.. فإننى أنا فى الثالثة والعشرين، وينبغى أن يكون عمر المرأة نصف عمر الرجل مضافا إليه سبع سنوات.

قال: بل تسمحين أن يكون عمرك خمسا وعشرين ليتفق الحساب من الطرفين، وأقسم لك إننى ما أسقطت يوما واحدا، وإنك أسقطت السنتين الناقصتين!

وتوالت المواعيد بعد الزيارة الأولى على تباعد بينهما فى مبدأ الأمر، ثم على تقارب يوشك أن يكون بلا انقطاع.

إلا أنهمـا اتفقا علـى أن ينذرا سـحابة يوم الجمعة لخلـوة كاملة لا مشاركة فيها ولا يعوقهما عنها عائق.

فيومـا على رمال الهرم، لأنها تريـد أن توقظ الفراعنة! ويوما على القناطر الخيرية، لأنها تريد أن تحاسـب النيل العتيق على عرائسـه الغريقات! يوما على زورق بين روض الفرج والروضة، ويوما فى حلوان ويوما عند آثار سـقارة، ويوما فـى صحراء ألماظة، ويوما فى جوار عين شمـس والمطرية. فإن لم تكن رياضة خلاء فعكوف فى المنزل من الصباح إلى المساء، وذلك أمتع الأيام!

يخلـو المنزل نهارها فـلا طاهى فيه ولا خادم ولا نزيل غير سـارة

وهمام، وقد جعلا خدمة المنزل فى ذلك اليوم شعائر مقدسة كالشعائر التى يتولاها الكهان، فهما يتبركان بها ولا يخجلان منها وهى فى يدها المكنسة وهو فى يده سكينة التخريط.. أو هى تمزج الحلوى وهو يقلب الآنية على النار... أو هى تملأ الأطباق وهو ينقلها إلى المائدة. حتى إذا حان وقت الطعام مثلت إلى جانب المائدة فى وقار وخشوع وقالت: انتهى دور الخدمة. فتفضلوا أيها السادة.

وتتسرب إلى المنزل أنباء الأصيل بالاستقراء لا بالمشاهدة فى معظم الأيام، فيقرآن أو يسمعان بعض الأغانى، أو يلعبان «الدومينو» قليلا وهى لعبة تحذقها سارة ويعتقد همام أنها أصح الألعاب وأشدها مطابقة للحياة. فالشطرنج والضامة يعولان على الحيلة وكل شىء فيهما مكشوف بعد ذلك، والنرد يعول على المصادفة والذكاء، وكل شىء فيه مكشوف بعد ذلك، والورق إما مصادفة وإما صراع قلما يشبه صراع الحياة.

أما «الدومينو» ففيها حساب للمصادفة وفيها حساب للتدبير وفيها حساب لليقين وفيها حساب للظنون، وفيها حساب للغيب الذى تجهله أنت وخصمك وللغيب الذى تجهله أنت ويعرفه خصمك أو يجهله هو وتعرفه أنت، وللعيان الذى يعرفه كل من يشاء، لها قوانين تمنعك أن تتحرك على هواك، ولها حرية تمنحك الخيار بين ما فى يدك!

قالت سارة يوما بعد ما استعادت شرح «فلسفة الدومينو» للمرة الخامسة أو السادسة أو السابعة: أو لا تستمتع باللعب إلا أن تكون له فلسفة؟

قال: لا. بل أنا أستمتع بالشيء ثم أبحث عن فلسفته، وإنني لأبحث عن فلسفته كما يجيل الشارب الكأس في جميع جوانب فمه ولهواته، كي لا يبقى جانب من النفس لا يأخذ نصيبه من متاعه. فأحسه وأعمله وأذكره وأفكر فيه وأستقصي معناه!

وأمثال هذه الأسئلة كانت تصدر منها كما يسأل الصبي أباه الشيخ في دالة ومحبة، أو كما يفتش المالك منزلا دخله واستولى عليه فراح يسأل عن كل صغيرة وكبيرة فيه، فما كان في تلك الأسئلة فضول غريب ولا تهجم واغل، ولكن السائل والمسئول عنه هما جزء من مكان واحد تدور عليهما أسواره وتحتويهما جدرانه، ويتفقد فيه من يشاء، ولا فضول ولا اقتحام.

لماذا هام بها؟

حواء أخرجت الرجل من جنة، وبناتها كل يوم يخرجن من جنات... فهل المرأة ضرة الجنة تغار منها غيرة الضرائر؟ لا ندري. ولكنها هي المرأة أبدا لا تريد للرجل أن ينعم بغير نعيمها، أو يسعد بغير سعادتها، وليس يعنيها أن تفرح معه كما يعنيها أن تكون سبب فرحه وينبوع سعادته دون كل ينبوع. وربما أرضاها أن تكون سبب ألمه وألمها، ولم يرضها أن تشاركه السعادة الوافية، إن كان للسعادة سبب سواها!

كان همـام قانعا بالمودة الهنيئة الوادعة بينه وبين سـارة: إن حضرت سره حضورها وإن غابت لم يغضبه غيابها، لا يفرض عليها حقا ولا يحسب أنها تفرض حقا عليه، ويتحدان وينفصلان ولا قلق في الأمر ولا اسـتطلاع ولا اسـتكراه، لها وقتها كله وله وقته كله، إلا ما يشتركان فيه من الوقت فهو لهما على السـواء، بلا اقتسـام ولا جور ولا اعتداء. غير أن «سـارة» لم يعجبهـا هـذا الجدول المترقرق المنسـاب وأبت إلا أن تراه شـلالا يعج ويثور، ويضطرب ويمور، فنصبت فيه الحواجز وأقامت فيه الصخور.

كان يسألها في مبدأ العلاقة بينهما عن موعدها المقبل فتذكر له يوما ويذكـر هو أن ذلك اليوم يوم زيارة صديق أو يوم شـهود احتفال أو يوم عمل من الأعمال التي تشـغله عن اللقاء، ويرجوها أن تنظر في تأجيل الموعد، فلا يعجبها ذلك.

وكانت تسـتعجل الانصراف في بعض زياراتها وتعتذر إليه بموعد أو بمصلحـة أو بما شـابه هذه المعاذير، فيأذن لها ولا يمسـكها، فلا يعجبهـا ذلك! وقالت له يوما بعبارة صريحـة إنه لو «أمرها» بالبقاء لبقيت وهي مسرورة.

وقالت له أياما إنه لو فضل موعدها على كل موعد غيره لفهمت أنها أثـيرة عنده وأن لقاءها محبب إليه مفضل لديه، فلما قال لها إنه يفضل لقاءهـا على غيره إذا كان حرا فـي الارتباط بهذا أو بذاك- قالت: هذه حجج يحتج بها الرجال حين يريدون وينبذونها حين لا يريدون، وإنه لو ترك من أجلها ميعادا لتركت من أجله مواعيد.

واستباحت لنفسها رويدا رويدا أن تفتش فى أوراقه الخاصة وهو لايمنعها. فعثرت فيها مرة بصورة فتاة هيفاء ممشوقة القوام فى غلالة تنم على محاسن بدنها وانسجام أوصالها. فصاحت به عابسة: ما هذه؟

وكان همام قد نسى الصورة ونسى أنها هناك. فنظر إليها وقال بغير اكتراث: فتاة راقصة!

غير أنه لاحظ أن سارة لم تؤخذ بجمال الفتاة كما أخذت بنوع جمالها، فلو كانت أجمل مما هى مائة مرة وكانت تشبه سارة فى بضاضتها لما راعها أن تعثر بصورتها هناك تلك الروعة التى بدرت منها فى صيحتها العابسة. لكن الفتاة هيفاء، وجميلة الهيف، وليس فيها ما يعيب بعض النحيفات من هزال وقلة اعتدال، وطلعتها مع ذلك طلعة راقصة كسائر أوصالها تكاد تنضح بالخفة والنغم. وقد كانت نوبة النحافة والتنحيف يومئذ فى بداءتها وفى إبانها، وكانت سارة تروض بدنها رياضة قاسية لتخف وتستوى على طراز الجمال الحديث، فكان هذا جميعه مما ضاعف اهتمامها بالفتاة وألهب فضولها.

قالت وفيم تحتفظ بها؟

قال: صورة فنية جميلة، كأنها تمثال، كأنها تحفة!

قالت وهى تنظر إلى توقيع الفتاة وخطها الركيك: ولماذا هذا التوقيع؟ ولماذا لم تقرنها بثانية وثالثة ورابعة؟ أهى الراقصة الوحيدة التى راقك جمالها؟

قـال: إن كان لا يقنعك إلا مجموعة كاملة من صور الراقصات فليس فـي الأمر صعوبة... ثم قـال: لو علمت يا خبيثة مقـدار ما وهبك الله من حدة الـذكاء لأنفت أن تغارى من صاحبة هـذه الصورة وأنت ترين «أميتها» ماثلة فى خطها.

قالـت: أو تظن أننى أبتهـج بأن تحبنى لحـدة ذكائى وتحب هذه الراقصة لما... لما لست أدرى ما أنت واجد فيها؟

قال: أنا لا أحبها...

قالت: أصحيح؟ إذن هل أنا فى حل من تمزيق الصورة؟

قال: لا أمنعك، ولكنها خسارة.

قالت: أهى خسـارة أم تخشـى أن تسـألك عنهـا صاحبتها؟ إننى لا أنافـس الراقصـات يا سـيدى! فاحتفظ بالصورة كمـا تهوى، ولكن أرجـوك أن ترد إلىّ صورتى. فلسـت أختار لها أن تقيم هنا وأمثال هذه الصورة فى مكان واحد!

فكبر الأمر على همام، وأحس لأول مرة أن فراق سـارة يثقل عليه، فقال لها: إن كان لا يريحك إلا أن تمزقى الصورة فمزقيها...

فمـا أمهلتـه أن يتم الجملـة حتى قبضت على الصـورة تمزقها كل ممزق كأنها تضمر لصاحبتها ضغينة وهى لم ترها ولم تسـمع باسمها، ولا يذكـر همام أنه بصر بامرأة تفرح هذا الفرح بتمزيق ورقة إلا امرأة جاهلة أسـلمها الساحر المشعوذ لفة من الورق زعم أنها هى الرقية التى

كتبتها لها الضرائر ليبتلينها بالسقم فى جسمها والنكد فى عيشها. فمزقتها وكأنها تود أن يصير جسمها كله أيديا تشترك فى تمزيقها.

وهكذا أخذت تحاسبه وأخذ يحاسبها، وشعر بالتضييق عليه ولكنه لم يضجر منه ولم يتبرم بالباعث إليه، وأنشأ يتعود أن يفكر فيما تصنعه وفيمن تلقاه أثناء غيابها، ويتعود أن يسألها وأن يتحرى حركاتها... وفرغ لها فوقع فى روعه ألا يقنع منها بما دون الاستئثار والتفرد، وانقلب الجدول الهادئ المنساب رويدا رويدا فغاب فيه الحمل الوديع وبرز منه الأسد المتحفز، ولو ظل كما كان جدولا وديعا لصفا واسترسل. أو لانتهى كما ينتهى النهر إلى مصبه فى رفق وسخاوة.

ذلك سبب من أسباب الهيام وقلما يكون الهيام لسبب واحد.

ومن أسبابه الكثيرة لذة الاستكشاف الدائم المحجوب بالتجديد والتنويع، فإن الرجل ليسره أن يستكشف المرأة، ويسره ألا يزال واجدا فيها كل حين ميدانا جديدا للاستكشاف، ويسره أن يراقب المرأة وهى تستكشفه وتتخذ لها منسربا إلى عواطفه، وترفع من دخائله حجابا وراء حجاب، ويسره أن يستكشفا الدنيا معا والناس معا والطبيعة معا بروح مركبة من روحين وجسد مؤلف من جسدين، وضياء كله شفوف وتجديد وآفاق تنساح إلى آفاق. فإن وقف الاستكشاف ولم يتجدد من جانب الرجل ومن جانب المرأة فقد يكون سببا للسآمة والعزوف لا سببا للشغف والهيام.

إن المرأة فى استكشافها الرجل لكمن يجوس خلال الغابة المرهوبة ليهتدى أولا وآخرا إلى موطن الرهبة منها ووسيلة الطمأنينة إلى تلك الرهبة، ثم يرتع فى صيدها وثمرها ويشبع من مظاهر العظمة والفخامة فيها.

وإن الرجل فى استكشافه المرأة لكمن يجوس خلال الروضة الأريضة ليهتدى إلى مجتمع الظل والراحة والمتعة والحلاوة بين ألفافها وثناياها. فهو يستكشفها ليعرف أحلى ما فيها وهى تستكشفه لتعرف أرهب ما فيه. ثم تصبح الروضة روضة وغابة، وتصبح الغابة غابة وروضة، ويقوم حواليهما سور واحد يشعران به إذا خرجا إلى الدنيا، ولا يشعران به وهما بنجوة منها.

وكان همام وسارة يتكاشفان كل يوم ولا يخفيان أنهما يتكاشفان... بل يتحدثان بما يعن لهما من شأنها وشأنه كأنهما رحالتان فى نزهة طويلة، يشتركان فى مراجعة عمل النهار كلما سكنا إلى ظلال الخيمة فى ظلام المساء.

كان يراقبها فى نفسها ويراقبها فى نفسه: كان يرى المرأة المرحة الطروب وهى تلهو وتعبث، ويرى المرأة الكسيرة المطواع وهى تلتمس الأمان والعزاء. ويرى الإنسانية الفطرية وهى تطيع الغريزة وتلبس «دورها» على مسرح الطبيعة بين نباتها وحيوانها ومكانها وأهوائها، ويرى المرأة الذكية وهى تقرأ النثر والشعر وتنتقد الصور المتحركة،

ويرى المرأة العصريـــة وهى تتغلب على امرأة الجيل الغابر فى ميدان، وتخضع لها وتنهزم أمامها فى ميدان، ويرى من وراء ذلك جميعه وفى خلال ذلـك جميعه المرأة الخالدة التى لا تتحـــول ولا تتبدل، والأنثى الســـرمدية التى يهمها من «الذكر» الحماية والجاه قبل كل شىء وبعد كل شىء، ولا يهمها العقل والرجحان والفضائل والمناقب إلا لأنها وجه من وجوه الحماية والجاه.

لقد أكبرته كثيرا وهى تســـمع الثناء عليه فى مجالس أناس من عليـــة الناس لا يعلمون ما بينهما من صلة، ولا يســـتريحون إليها لو علموها.

ولقد أكبرته كثيرا وهى تقرأ له أســـفار النوابغ من أساطين الأقدمين وفحـــول المحدثـــين الغربيين، وهو يعقـــب على ما يســـمع بكلمة هنا وكلمة هناك، ويناقش لها ما يبدو أنه حقيق بالمناقشة. وليست هى من الجهل بحيث يخفى عليها ســـداد مناقشاته، وليست هى من قلة الثقة بـــه بحيث تغلق المنافذ علـــى ذهنها مكابرة وتقليدا كمـــا يفعل العامة الجامدون، وليســـت هى من العلم بحيث تفهـــم أن نوابغ الغرب كائنة ما كانت أقدارهم وبالغا ما بلغ صيتهم واشتهارهم خاضعون للنقد قابلون للتشريح والتصحيح، بل هى قد نشأت نشأتها الأولى على تقديس هؤلاء النوابغ والعلو بهم إلى مرتبـــة العصمة والتأليه، فإذا بدهتها الملاحظة ولم تجهل سدادها فغرت فاها الصغير وحملقت بعينيها الواسعتين كما

تفعل الطفلة وهى تتفرج على منظر طريف. وجال فى قلبها إكبار تعبر عنه بكل ما تستطيع من علامات التحبب والتدليل.

إلا أن شيئا من ذلك- فى مدى السنوات الطوال- لم ينعشها ولم يلمس كوامن أنوثتها ولم يقدح من سرورها به وحنينها إلى جواره مثل ما نعشها وسرى فيها وتجلى عليها فى حادثة عرضية حدثت ذات مساء فى مركبة من مركبات الأجرة بين الزمالك والجزيرة:

كانت المركبة تسير على مهل والحوذى قد غفل عن إشعال مصابيحها بعد مغيب الشمس، فصدمت واحدا من ثلاثة أو أربعة من رجال الضبط كانوا يتمشون على ساحل النيل فى محاذاة العوامات والذهبيات، وذلك جرم من الحوذى تضيق عنه رحمة الله! فإن كل شىء ليجوز للحوذى الغافل إلا أن يصدم السادة «رجال الضبط» وهم أصحاب الحول والطول والقول الفصل فى الخيل والمركبات والسيارات والحوذية والساقة، وما يحملون ومن يحملون!.. فإذا كان ذلك فى أثناء «تأدية وظيفة» كما يسهل القول والإثبات فويل يومئذ للمسكين! ثم ويل يومئذ للمسكين... إنه لذاهب من الدار إلى النار وما له من شفيع!

وقد كان أصاب الغافل الأثيم جزاءه اليسير فى سرعة لا تليق بمركبات الخيل ولو كان لها مائة حصان، فجذبه «رجال الأمن» من مقعده الرفيع وصافحوا صدغيه بكل ما وسعته الكفوف من مرانة على هذا الضرب من المصافحات، وجعل الرجل يستغيث ويعتذر ويتوسل

ولا جـواب له إلا ضربات متداركات تتبارى فيها الألسـنة والكفوف. وطـال الخصام ولاح لهمام أنـه لا يؤذن بختام... فلـم يجد مناصا من النزول والسـعى فى الإصلاح. ولم يغب عـن باله أن اللجاجة قد تفضى برجل الضبط «المعتدى عليه» إلى كتابة محضر واسـتدعاء شـهود، وأنه سيكون لا محالة واحدا من هؤلاء الشهود. فإذا أفضى الأمر إلى ذلك فقد كان ينوى أن يعطيهم عنوانه إن قنعوا به، أو يصاحبهم بعد أن يحتال فى صرف سارة وإبعادها عن القضية ما استطاع.

على أن المسـألة لم تلجىء إلى شـىء من ذاك، ولم تستغرق أكثر من دقيقة أو دقيقتين، فقد كان «رجال الضبط» ظرفاء رقاق الحاشية يعرفون هماما بالرؤية والسماع وإن لم تجمعهم به صداقة. فتلطف أكبرهم وحيا همامـا بلقبـه دون اسمه، واتجـه إلى الحوذى بعـد أن صفعه الصفعة الأخيرة.. وأسـلمه الرخصة المنزوعة... وهو يهنئه بالسـلامة إكراما للرجل الذى معه لا إكراما لأمه وأبيه اللذين من صفاتهما كيت وكيت، كما علم قبل ذلك على ما يظهر!

لم تكن سـارة من السـذاجة بحيث تفرق من محذور هذه الحادثة، ولم تكن من قلة الحيلة بحيث تعنى بتدبيرها إن ساءت الجريرة، وقد أفهمها همام قبل نزوله من المركبة أن اتقاء المحذور سهل من «الوجهة الرسمية»... وقد سبق لهما أن تعرضا معا لمهاجمة بعض العاطلين الذين يأخـذون الطرقات على المارة فى الضواحى البعيدة رجاء المسـاومة على

ما يحسبونه من الفضائح الغراميـة. فنظرت إليهم غير حافلة وتركت هماما يزجرهم وينهرهم ليعلموا ألا رجاء فى المساومة ولا خوف من فضيحة. فلم يكن سرورها بصاحبها تلك الليلة سرور النجاة من مأزق مخيف والفزع من عاقبة محذورة، وإنما كان سرور المرأة بالحماية والثقة والاستسلام وهى مغمضة العينين.

فلما عاد همام إلى المركبة واستوى فى مكانه فيها لم تزد على أن زحفت إلى جانبه واستكانت إلى جواره وتطامنت فى حضنه تطامن الفرخ فى حضن أبيه، وهمست تحت أذنه وهى تمسح خدها بخده ما أسعدنى بجوارك سيدى ومولاى... وكانت تلك أول مرة دعته فيها تلك الدعوة، وكان ذلك كل ما فاهت به من تعبير عن سرورها وما كانت فى حاجة إلى أن تزيد... فقد كان شعور همام بسرورها الناعم المرفرف الشكور غنيا عن كل كلام!

وعرف همام أنها استكشفته وطبعته فى صفحة المحاكاة عندها بعد فترة وجيزة، فجعلت تحكيه وتمثله فى ضحكه وحديثه وتأمينه الصامت، واعتراضه بالإشارة، وردوده وهو مشغول، وردوده وهو حاضر القريحة، وتعقد أحيانا محادثة طويلة بينها وبين نفسها. تتكلم فيها مرة بصوتها وأسلوبها ومرة بصوت همام وأسلوبه، فتجيد المحاكاة فى اللهجة والتفكير إجادة لا يعيبها الفرق بين الصوتين والجسمين والهيئتين، بل يزيدها ملاحة على ملاحة.

وإنهـا لقد عرفـت منه بزكانة المرأة فى شـهر واحد مـا لم يعرفه أصدقـاؤه وخلطاؤه فى أعـوام. فتقول له: إن الزوبعـة منك لا تخيف ولا تطـول بمقدار ما يخيف الاسـتقرار الذى بطل فيه التردد وخلا من كل هيـاج وكل ثورة، وتقـول له: إننى إذا أردت أن أهزمك لم أبرز لك بسلاح ولم ألبس لك شكة الحرب، فأقودك من أذنيك.

* * *

وما زالا يتكاشفان ويتكاشفان حتى علما أنهما مكشوفان لا يتواريان فى جنة لا ينبت فيها ورق التين. فكان هذا التكاشـف سـببا ثانيا من أسباب هيام همام، وقلما ينحصر الهيام فى سببين اثنين!

نعـم. فقد كان لهيامه بها أسـباب مختلفات، بعضها محدود واضح المعالم وبعضها مزيج من (أسباب شتى) لا تتضح لها حدود.

فمن تلك الأسـباب الواضحة أنه كان يحس إحساسا شديدا أن توديع هذه العاطفة قد يرادف فى معناه توديع الحياة.

لأنـه تعلق بها وهو فى العقد الرابع من عمـره. فإذا انقطع ما بينه وبينها فمن له بفتاة تخلفها فى مثل ذكائها ونضارتها وموافقتها؟ وإذا وجـد الفتاة فمن له بالقلب الذى يلبى دواعى الصبا وينزع منازع الفتوة ويتقد ويخبو على حسـب المشيئة، ويغامر اليوم فى عاطفة مرجوة وقد كان بالأمس فى عاطفة يائسة مضيعة؟

إن خبت هذه العاطفة فهى جذوة الغرام الأخيرة، وعليه أن يذكيها ويرعاها كما كان الأقدمون يرعون الشعلة المقدسة مخافة أن تنطفئ فلا يستعيدونها . قبل أن يحذقوا صناعة الزناد والثقاب.

ومن أسباب هيامه بها ألفة متغلغلة فى أنحاء النفس والجسد كألفة المدمن للعقار المخدر: من شاء أن يسميها حبا فهو صادق، ومن شاء أن يسميها بغضا فهو صادق، ولمن شاء أن يزعم أن المدمن يتعاطى عقاره وهو راغب فيه. ولمن شاء أن يزعم أنه يتعاطاه وهو ساخط عليه. فقصارى القول أنه يتعاطاه، وأن الإقلاع عنه يكلفه جهد الطاقة وغاية المشقة.

ومن الحق أن نذكر هنا أن الرجل يعشق الأنثى فى مبدأ الأمر لأنها امرأة بعينها: امرأة بصفاتها الشخصية وخلالها التى تتميز بها بين سائر النساء، ولكنه إذا أوغل فى عشقها وانغمس فيه أحبها لأنها «المرأة» كلها أو المرأة التى تتمثل فيها الأنوثة بحذافيرها وتجتمع فيها صفات حواء وجميع بناتها، فهى تثير فيه كل ما تثيره الأنوثة من شعور الحياة. وأى شعور هو بعيد من نفس الإنسان فى هذه الحالة؟ إن الأنوثة لتثير فيه شعور القوة، وشعور الجمال وشعور اللذة، وشعور الألم، وشعور الجموح والانطلاق من قيود المنطق والحكمة، وشعور الإنسان كله، وشعور الحيوان كله، بل تثير فيه حتى الشعور بما وراء الطبيعة من أسرار مرهوبة ومن أغوار لا يسبر مداها فى النور والظلام! لأن المرأة حين تمثل الأنوثة هى مناط الخلق والتكوين، وأداة التوليد

والدوام والخلود، وهى مظهر القوة التى بيديها كل شـــىء فى الوجود، وكل شىء فى الإنسان.

* * *

وكذلــك تجمعت أســباب الهيام مــن ألفة إلى متعــة إلى تفاهم إلى اتفاق فى أمور، إلى اختلاف فى أمور غيرها، حتى اســتحكمت أواصر الملازمة، وتلاحمت وشــائج الفتنة. فلما أنشــأ يحاســبها على حقوق الوفــاء، ويتقاضاها أمانة الإخلاص، لم يكــن ذلك غلوا منه فى تنزيه العصمة الإنسانية ولا غلوًا منه فى تنزيه عصمها، ولكنه حاسبها ذلك الحســاب لأنه حتم لا مندوحة له عنه، ولأن الســكوت عنها كان أشق عليه من حسابها.

وإلا فماذا هو صانع! أيفارقها؟ ذلك عسير!

أيستبقيها على أن يكون لها وحدها ولا تكون له وحده؟ ليس ذلك بيسير!

وهكذا يتفق أن يحاسب الرجل المرأة بميزان الملائكة، وهو لا يستبعد منها غدر الشياطين.

حبّان

إذا

ميــز الرجل المرأة بين جميع النســاء، فذلك هــو الحب! إذا أصبح النســاء جميعا لا يغنين الرجــل ما تغنيه امرأة واحدة، فذلك هو الحب! إذا ميز الرجل المرأة لا لأنها أجمل النساء، ولا لأنها

أذكى النســاء، ولا لأنها أوفى النســاء، ولا لأنها أولى النساء بالحب، ولكن لأنها هى هى بمحاسنها وعيوبها؛ فذلك هو الحب!

وقــد يميز الرجل امرأتين فى وقت واحد. لكن لابد من اختلاف بين الحبــين فى النوع، أو فى الدرجــة، أو فى الرجاء. فيكون أحد الحبين خالصا للروح والوجدان، ويكون الحب الآخر مستغرقا شاملا للروحين والجســدين. أو يكون أحد الحبين مقبلا صاعدا، والحب الآخر آخذا فى الإدبار والهبوط. أو يكــون أحد الحبين مغريا بالرجاء، والحب الآخر مشوبا باليأس والريبة.

أما أن يجتمع حبان قويان من نوع واحد فى وقت واحد فذلك ازدواج غــير معهود فــى الطباع. لأن العاطفــة لا تقف دون المــدى ولا تعرف الحدود، وإذا بلغت العاطفة مداها جبت ما سواها!

وقد كان همام يحب امرأة أخرى حين التقى بسارة فى بيت ماريانا: يحبها الحب الذى جعله ينتظر الرســالة أو حديث التليفون كما ينتظر العاشــق موعد اللقــاء، وكانا كثيرا ما يتراســلان أو يتحدثان، وكثيرا ما يتباعــدان ويلتزمان الصمت الطويــل إيثارا للتقيــة واجتنابا للقيل والقــال وتهدئة من جماح العاطفة إذا خافا عليها الانقطاع. ولكنهما فى جميع ذلك كانا أشبه بالشجرتين منهما بالإنسانين، يتلاقيان وكلاهما على جذوره، ويتلامســان بأهداب الأغصان، أو بنفحات النسيم العابر من هذه الأوراق إلى تلك الأوراق...

كانا يتناولان من الحب كل ما يتناوله العاشقان على مسرح التمثيل، ولا يزيدان.

وكان يغازلهـا فتومئ إليه بأصبعهـا كالمنذرة المتوعدة، فإذا نظر إلى عينيهـا لم يدر أتستزيده أم تنهاه، ولكنه يدرى أن الزيادة ترتفع بالنغمة إلى مقام النشوز. وكان يكتب إليها فيفيض ويسترسل، ويذكر الشوق والوجد والأمل، فإذا لقيهـا بعد ذلك لم ير منهـا ما ينم على استياء، ولم يسمع منها ما يدل على وصول الخطاب، وإنما يسمع الجواب باللحن والإيماء دون الإعراب والإفصاح.

وربما تواعدا إلى جلسة من جلسات الصور المتحركة فى مكان لا غبار عليه، فيتحدثان بلسان بطل الرواية وبطلتها، ويسهبان ما احتملت الكناية الإسهاب. ثم يغيران سياق الحديث فى غير اقتضاب ولا ابتسار. وكانا أشبه بالنجمين السيارين فى المنظومة الواحدة، لا يزالان يحومان فى نطاق واحد، ويتجاذبان حول محور واحد، ولكنهما يحذران التقارب... لأنه اصطدام!

ولم تكن هند- وليكن اسمها هندا- لتعتقد الرهبانية فى همام، ولا لتزعم بينها وبين وجدانها أنه معزول عن عالم النساء. غير أنها لم تكن تحفل اتصاله بالنساء ما دام اسمهن نساء لا يلوح من بينهن اسم امرأة واحدة، وشبح غرام واحد، فإن اسم النساء فى هذه الحالة لا يدل على معنى، ولا انتقاص فيه لما بينهما من رعاية واستئثار.

فلما شـعرت بأن النسـاء تحولن عنده إلى امرأة لها شأن غير شئون أخواتهـا من بنات حواء زارته على حين غـرة فى مكتب عمله، وهى الزيارة الأولى والأخيرة من قبيلها، ولم يكن لها مسـوغ من طول الغيبة ولا امتنـاع حديث التليفون. فما شـك لحظة فى غـرض الزيارة ولا فى باعثهـا، وتوقـع منها عتبا عنيفا على أسـلوبها فـى التعبير الصامت المبين، ولكنه علم سـلفا أنها غير منصفة فـى عتبها، لأنه لم يختلس منها شيئا هو من حقها عليه. فرحب بها وأبدى لها استغرابه لزيارتها وابتهاجه بسـؤالها عنه، وأنصت مترقبـا... فقالت بعد فترة وصوتها يتهدج: لست زائرة ولا سائلة!

قال: إذن...

ولم يتمها لأنها نظرت إليه كمن يسـتحلفه ألا يتكلم. وانحدرت من عينيها دمعتان. فما تمالك نفسـه أن تناول يدها ورفعها إلى فمه يقبلها ويعيد تقبيلها، فمانعته ولم تكف عن النظر إليه. ثم استجمعت عزمها ونهضت منصرفة، وهى تتمتم هامسـة: دع يدى. ودعنى! ثم انصرفت بعد أن سكن جأشها وزال من صفحة وجهها أثر الدموع.

لـو جاءت هذه الزيارة وهمام فى بداية العلاقة بسـارة لما كان بعيدا أن تقضـى علـى تلـك العلاقة، وأن ترد سـارة اسما مغمـورا فى عامة عنوان النسـاء. بيد أنها جاءت وقد أوغلت العلاقة بينهما إيغالها الذى لا تراجـع فيه، وصمدت على طريقها تعدو مع الأيام عدوا لا تنظر فيه

إلى الوراء. وفسح لها الطريق أن هماما لم يكن يوغل فيها مثقلا بتبكيت ضميره. لأنه لم يخن هندا ولم يقصر فى حقها عليه، ولا وهم أنها تغضب من أمر لا عهد بينه وبينها فيه.

* * *

ولقد كانت سارة وهند على مثالين من الأنوثة متناقضين: كلتاهما أنثى حقا لا تخرج عن نطاق جنسها، غير أنهما من التباين والتنافر بحيث لا تتمنى إحداهما أن تحل محل الثانية، وتوشك أن تزدريها.

ماذا أقول؟ بل لعلهما من التباين والتنافر بحيث تتمنى كلتاهما قبسا من طبيعة الأخرى، لولا أنها تنكر الاعتراف بذلك بينها وبين نفسها، فتسمح للتمنى أن يستحيل إلى نفور.

فإذا كانت سارة قد خلقت وثنية فى ساحة الطبيعة فهند قد خلقت راهبة فى دير، من غير حاجة إلى دير!

تلك مشغولة بأن تحطم من القيود أكثر ما استطاعت، وهذه مشغولة بأن تصوغ حولها أكثر ما استطاعت من قيود، ثم توشيها بطلاء الذهب، وترصعها بفرائد الجوهر!

الحزن الرفيع والألم العزيز شفاعة عند هند مقبولة، إذا لم تكن هى وحدها الشفاعة المقبولة. أما عند سارة فالشفاعة الأولى بل الشفاعة العليا هى النعيم والسرور!

تلك يومها جمعة الآلام، وهذه يومها شم النسيم!

تلك تشـــكو ويخيل إليك أنها ذات أرب فى بقاء الشرور تستديم بها معاذير الشـــكوى، وهذه تشكو كما يبكى الطفل لينال نصيبا فوق نصيبه من الحلوى!

تلك مولعة بمداراة نقائصها لتبدو كما تتمنى أن تكون، وهذه مولعة بكشـــف نقائصها لتمســـح عنها وضـــر الخجل والمســـبة، وتعرضها فى معرض الزينة والمباهاة!

تلك لها عدة المقانة والمجاملة، وهذه لها عدة الرخاصة والبساطة!

لو عملت تلك عمل الرجال لانتظمت فى السلك السياسى، ولو عملت هذه عمل الرجال لانتظمت نديما فى حاشية أمير مفراح.

كلتاهمـــا جميلـــة، ولكن الجمـــال فى هند كالحصن الـــذى يحيط به الخندق. أما الجمال فى ســـارة فكالبستان الذى يحيط به جدول من الماء النمير، هو جزء من البستان لا حاجز دون البستان، وهو للعبور أكثر مما يكون للصد والنفور.

تلـــك ذات طموح وهمم، وهذه تحســـب الواقع الـــذى يوائمها خيرا وأشهى من كل مطمع ومن كل همة.

تلك تعطيك خير ما أعطيت على البعد والحيطة، وهذه تعطيك خير ما أعطت على القرب والسرف.

كلتاهما ذات ثقافة وألمعية، لكن ثقافة هند إلى معرفة، وثقافة سارة إلى الفطرة.

ولو نسينا العرف والاصطلاح لحار الإنسان أيهما أقوم فى السجايا والأخلاق. ولكن الذى لا ريب فيه ولا حيرة فيه أن سارة أرجح وأصلح قبل أن ينزل التكليف على أبناء آدم وحواء، وأن هندا أرجح وأصلح حيثما نزل تكليف.. أى تكليف!

* * *

وما زالت الصور النسائية تتوارى وتتهافت فى بديهة همام حتى احتجبت كل صورة إلا هاتين الصورتين المتقابلتين: إحداهما قائمة فى محراب، والأخرى باثقة كالزهرة من زبد العباب! وتعاقبت الأيام فأصبحت إحداهما صورة فنية نفسية لا تقوم بمال ومثلت الأخرى كما كانت تمثالا من لحم ودم!

* * *

وكانت سارة لا تعلم من شأن هند إلا أن هماما يعرفها ويكبرها ويزورها حينا بعد حين. فكانت تتبرم بهذه الزيارات، ثم كانت تتوخى أن تغويه وتشغله فى اليوم الذى يختاره لزيارة هند... فيؤجل الموعد لأنه لم يكن فى الحقيقة بموعد، ولأن البعد يمنع الاتصال بسارة وما عندها من سرور، ولكنه لا يمنع الاتصال بهند فى ذلك اليوم، وفى كل يوم.

* * *

وراح همام يفسرق من نفسه وهو يدرى تارة ولا يدرى تارة أخرى، حتى ابتلعته اللجة وشغلته سارة عن كل شاغل، أو أصبحت على الأصح ممزوجة بكل شاغل. فبعد أن كانت فى أول التعارف بينهما واحدة من ألوف وملايين يشملهن عنوان النساء مفضلة إن حضرت، وتغيب فيغنى عنها من حضر- عادت وهى الواحدة وحدها لا يغنى عنها سواها. وعاد همام ينظر إلى النساء فى الطرقات ويوشك أن يسأل جدا وصدقا: ما بال هؤلاء؟ ولماذا خلقن؟ ومن ذا الذى ينظر إليهن؟

لماذا شك فيها؟

اثنان لا يشكان فى المرأة التى يحبانها، وباب الشك فيها مغلق عندهما:

شاب فى مقتبل أيامه، مخدوع فى أحلامه، مؤمن بقداسة الحبيبة على منوال عصور الفروسية. يرتفع بها إلى سماء الطهر ويكبرها أن تخون ويكبر نفسه فى الحقيقة أن يخان! ويسمع منها أنها تمحضه الحب وتخلص له الولاء فلا يدور بخلده أنه يسمع كلاما يحتمل الصدق والكذب، ويجوز فيه الغلو والتزويق. ويتعاهدان على دوام الصفاء بقية العمر كله فلا يخيل إليه أنهما يتعاهدان على مستحيل. لأنه يتمنى، ولا يفرق بين ما سيكون وبين ما يتمنى أن يكون.

والآخر رجل مطموس البصيرة مملوء الخياشيم بالغرور والدعوى...

يؤتى إليه أنه حسب المرأة من أمنية ومطمع، فلا منصرف له عنها، ولا معدى له إلى غيره. وإلا فماذا عساها أن تبغى عند غيره؟ إنه رضى النساء من جمال واعتدال ووفرة ومال. فإذا قنعت به فما هى بمظلومة، وإن لم تقنع به إنها إذن لظالمة!.

حسن! ولكن ألا يحدث فى الدنيا أن تكون المرأة ظالمة؟

كلا!! لأن ذلك لا يسره!! وكفى ألا يسره شىء من الأشياء حتى لا يكون ولا يجوز أن يكون!

ولم يكن همام بهذا ولا بذاك.

لم يكن شابا فى مقتبل أيامه، لأنه جاوز الثلاثين وأوشك أن يصعد إلى الأربعين.

ولم يكن مخدوعا بهذا الضرب من الغرور، لأنه موكول إلى ضروب أخرى من غرور النفوس، مطبوع على أن لا يعلق قيمته فى معارض الفخر والمباهاة على رأى إنسان من النساء، أو من الرجال!

وكان قد خبر من أحوال المرأة والرجل ما أقنعه أن الخيانة بينهما ليست من الصعوبة والامتناع بحيث يتوهمان. فما من رجل كبر أو صغر إلا والمرأة واجدة بديلا منه يغنيها عنه فى جميع نواحيه أو بعض نواحيه: إن كان محبوبا ففى الرجال من هو أحب، وإن كان مهيبا ففى الرجال من هو أهيب، وإن كان جميلا أو سريا أو قويا ففى الرجال من هو أجمل وأسرى وأقوى. ولقد تستبدل الذى هو أدنى بالذى هو

خير، فليس من الضرورى أن تفاضل المرأة بين الحسن والأحسن والصالح والأصلح، وليس من الضرورى- إن هى فاضلت- أن تكون مختارة مفتوحة العينين فيما تدع وفيما تأخذ. فقد تكون مخدوعة مسوقة ثم تستنيم إلى الخديعة، وقد تؤثر الرجل على الرجل شهوة طريق، كما يذهب الإنسان إلى غذائه فيلقاه مطعم يفغم أنفه ببعض روائحه فيميل إليه، وقد يعافه فى غير تلك الساعة.

وكان همام يعتقد أن الغش عند المرأة كالعظمة عند فصائل الكلاب، يعضها الكلب المدلل ويدخرها حيث يعود إليها وإن شبع جوفه من اللبن واللحم والأغذية المشتهاة. لأن ألوفا من السنين قد ربت أسنانه وفكيه على قضم العظام وعرقها، فهو يطلبها ليجهد أسنانه وفكيه فى القضم والعرق، ولو لم تكن به حاجة إلى أكلها.

وألوف من السنين قد غبرت على المرأة وهى تخاف وتحتال وتراوغ وترائى وتلعب بمواطن الضعف فى الرجل، حتى أصبح بعض النساء ممن قويت فيهن عناصر الوراثة وبرزت فى طباعهن عقابيل الرجعة ينشدن الغش التذاذا به وشحذا للأسنان القديمة التى نبتت عليه... ويسرهن أن يصنعن الشىء ويخفينه ولو لم تكن بهن حاجة إلى صنعه ولا إخفائه. لأن المرأة من هؤلاء تشتهى العظمة بجوع عشرين ألف سنة، وتشتهى اللحم واللبن بجوع ساعات.

ولقد عرف همام سارة فلماذا لا يعرفها غيره؟ ولم يصعب عليه أن ينال عطفها فلماذا يصعب على غيره أن يناله؟

إنه لم يكن يستبعد الغش والخيانة، وليس بين الشيء الذى لا يستبعد والشيء الذى يتوقع إلا خطوة وعلامة محسوسة.

على أن الإنسان قد يتوقع الغش لفرط إشفاقه من الفقد والخسارة لا لفرط اتهامه وسوء ظنه! فالخزانة التى تتركها فارغة هى بعينها الخزانة التى تملؤها بالذهب والفضة والجواهر الثمينة، لكنك تخشى على متانتها وهى حافلة عامرة ولا تخشى على متانتها وهى فارغة منسية.

وربما خرج الرجل الواحد من المنزل تنتظره فيه أم حنون وزوجة قالية، فإذا تأخر عن موعد الإياب فأول ما يخطر على بال الأم أن ابنها قد أصابه مكروه،وأول ما يخطر على بال الزوجة أن زوجها يعبث ويعربد، ولا يمكن أن يكون الرجل الواحد رجلين فى الرشد والحصافة والقدرة على دفع الأخطار، وإنما اختلف التوقع باختلاف الشعور والخشية. فتتوقع الأم المكروه لأنها تخشى المكروه ولا تبالى سواه، وتتوقع الزوجة العربدة لأنها تخشى العربدة ولا تبالى سواها، ولا يسوءها أن يصاب زوجها البغيض كما يسوءها أن يصيبها فى غيرتها وكرامتها الزوجية.

لهذا أصبح همام يحذر الخيانة حين أصبحت هذه الخيانة شيئا يهمه ويشغل باله، ولم يتأهب لنفيها كما تأهب لقبولها،

ولم يكبح خواطره علـــى التمادى فى الظلم لأنه علم أن ضمان العدل موجـــود لا يغفل ! ! وضمان العدل أن ســـارة عزيـــزة عليه، فما هو بمســـتعد للتفريط فيها تجنيا عليها ومطاوعة لوهم عارض أو شبهة طفيفـــة، وما هو بقادر على التفريط إلا وقد أصبح وأمســـى وليس له عن التفريط محيد !

* * *

خذوا أسرارهم من صغارهم.... وسر «سارة» إنما طرق مسامع همام- أول ما طرقها- من لسان طفلها الصغير.

كانا يتنزهان يوما فى أربـــاض القاهرة ومعها طفلها الصغير، فلعب الطفل ومرح وعدا وطفر ما شاء له مرح الطفولة ومرح المكان... ثم اتجه- طفـــرة أيضا- نحو أمه وهـــو لا يدرى ماذا يصنع، فاتخـــذ منها موقف العاشـــق المدله وجعل يفوه بألفاظ مـــن عبارات المناجاة والغزل والتحبب والتدليل لا تســـمع إلا بين عاشـــقين فى خلوة غرام، وانطلق يرصها رصا كأنما يتلقاهـــا من ملقن أو يتلوها من كتاب، فصحا همام من حلمه الذى كان ســـادرا فيه على مهل وتكاســـل كأنه لم يتبين بعد معنى ما يسمع. وأسرعت هى فانتهرت الطفل انتهارا شديدا وعنفت عليه وهى تبالغ فى نهيه أن يسترسل فى تمثيل دوره، وأرادت أن توقع فى روع همام بغير اكتراث ظاهر أنها إنما تزجر الطفل لبذاءة الكلام الذى يســـرده لا لأنها

تكتم سرا يوشك أن يفضحه بثرثرته وهذره. فقالت: تلك مصيبة العشرة السيئة والقدوة المرذولة... ما أدرى والله ماذا أصنع بهذا الطفل فى سنه الصغيرة، فلا هو يصلح للمدرسة ولا هو يطيق الحبس والعزلة عن أنداده وأترابه، ولا هو يسلم فى معاشرة هؤلاء الأنداد والأتراب!

قال همام: ولكنك تعرفين أنداده وأترابه، فمن منهم تحسبينه خليقا أن يعيد على مسمعه تلك العبارات؟

قالت: ومن أين لى أن أعلم؟ فقد يسمعونه من خادمة أو خادم فى أكنان الحدائق وزوايا الطريق.

قال: أو هذا كلام خدم؟ إن الخدم لا يصطنعون التدليل والغزل على هذا المنوال!

فسكتت وسكت، وما فى ذهنه ذرة من الشك فى أن بعضا من ذلك الكلام الذى لغط به الطفل قد صدر من أمه... لأنه كلامها، فكيف تسرب إليه؟ ومن أين؟

إن هماما ليذكر جد الذكر أنهما لا يتخاطبان فى محضر الطفل إلا كما يتخاطب الرجل والمرأة فى المجلس المشهود، وليس لسارة زوج يعيش معها، وليس من عادة الأزواج مع هذا أن يتغازلوا على هذا المنوال بمسمع الأطفال الصغار، فمن أين تسربت إليه المناجاة بطرفيها؟ من أين؟ نعم من أين؟!

واقترنت تلك الظاهرة فى حينها بظواهر مريبة مثلها... «فماريانا»

التى كانت لا تؤمن على سـر المعرفة بينهما ما بالها اليوم قد أصبحت مأمونة الجانب مغشـية الدار حتى لا حذر من التواعد لديها على غير ضرورة؟ وتلك الزينة المعهودة بعطرها وشياتها ما بال سارة تحتفل بها فـى غير أيامها! ونوازع الغرائز التى لا سـلطان عليها للمرأة ما بالها تتبدل؟ ووسـائل الحيطة الخفية ما بالها تتعدد؟ وذلك التلطف المريب تلطـف الآثم الذى يمسـح حوبته بفـرط المجاملة ويكفـر عن خيانته الباطنه بفرط المصالحة الظاهرة ماذا وراءه وماذا فى أطوائه؟

علامات وقرائن لا يأخذ بها القاضى فى قضائه بالإدانة ولكنها كافية للتشكيك فى خلوص النية...

والقضـاء بعـد مطالب بإقناع غـيره محظور عليـه أن يكتفى بإقناع نفسـه... أما الرجـل الذى ينشـد الطمأنينة مع المـرأة فلمن يحكم إن لم يحكم بحسه؟ وبأى اقتناع يدين إن لم يدن باقتناعه؟

وراء الأكمـة مـا وراءها.. تلـك حقيقة لا ريب فيهـا، ولكن ماذا وراءها؟ قد يجهل الرجل ذلك على التحقيق والتفصيل، ولكن ألا يكفى أن تكون هناك أكمة وأن يكون هناك شىء مجهول وراءها ليقوم الحائل بين القلبين، ويكدر الجوبين الصفيين؟

وجائـز عند همـام أن تنصرف عنه سـارة إلى غـيره. ولكن ليس بالجائز عنده أن تسـتغفله لأنها تتوهم فى دهائها القدرة على الجمع بينه وبين غيره!

جائـز أن يكون هو وهى ألعوبة واحدة فى يد الطبيعة التى تسـوقه وتسـوقها، ولكن ليس بالجائز أن يكون هو ألعوبة فى يدها وأن تكون هى اللاعبة بلبه وولائه!

وقد نصب لقلبها الميزان الذى نصبه لقلبه فى السر والعلانية، وأخذ عليها شبهات كثيرة ولم تأخذ عليه شبهة واحدة، واتهمها فلم يشاهد عليهـا عذاب المرأة التـى تفجع فى حب تقابله بحب مثله، بل كان كل ما شـاهده عليه محال المتهم الذى يجهد فى تفنيد تهمة، ويود لو فاز بالغلبة ووقع على الأدلة الدامغة..

هل ظلمها؟

يجوز...

وكلما أعاد همام هذا السـؤال وأعاد معـه هذا الجواب لمس به أغوار فتنتها واعتقد أنه يخدع عقله باختياره، ويسـاعدها على تضليل حسه ورأيـه، وأنه لم يظلمها ولا افترى عليها! ولولا ذلك لقد كانت شـبهة أهون من هاتيك الشبهات كافية كل الكفاية للبت فى أمرها وطى السؤال والجواب عنها.

وخـير له أن يفارقها بغـير جريرة قادراً علـى آلام فراقها صائما عن مسـراتها، ومن أن يعاشرها عاجزًا عن فراقها، باذلا كل ما عنده من اهتمام، مسـتحقًا كل ما عنده من احتقار واسـتغفال لقد سـلبته الطمأنينة وكفى!

جلاء الحقيقة

انتهت مهمتى!

أى نعم. انتهت المهمة، وبطلت الرقابة، واستراح الرقيب!

وكان «أمين» موفقًا فى هذه المرة كل التوفيق، لأنه زود همامًا بالحجة القاطعة التى يواجه بها غوايته ويقمع بها نكسات ضعفه، كلما ساوره الندم وعزت عليه السلوى. ولم تأت هذه الحجة إلا بعد استئناف الرقابة بزمن غير قصير، وجهد غير قليل.

ولكن علام الرقابة بعد القطيعة؟ ألم ينحسم كل ما بين ذلك الرجل وتلك المرأة من علاقة؟ ألم يقصر همام عن ذكر سارة ووفاء سارة وخداع سارة؟ ألم يعول كل التعويل على أن يظن أسوأ الظنون، ويفرض أشنع الفروض، ويوطن عزيمته على خيانتها ولا يغالط وهمه فى شأنها ولو تفتحت له أبواب المغالطة؟

بلى كان ذلك!

غير أنها كانت أحلامًا، ولم تصح الأحلام إلا بضعة أيام.

وقد صحت الأحلام فى الأيام الأولى بعد القطيعة حتى ظن همام أنه قد سلا، واستقر على السلوى، فما يبالى بعدها من خان ووفى ومن ضل وغوى. على أنها كانت راحة موقوتة أشبه براحة اللذيع الساهد حين

ينقلب من جنب إلى جنب، وما به من نوم ولا غفوة على هذا الجنب ولا على ذاك.

ثم خرج همام من هذه الراحة الموقوتة إلى شيء آخر: إلى شيء غير الراحة وغير السلوى، إلى الشعور القاصم بالفراغ، وبالحرج والضيق ونفاذ الحيلة كلها فى ذلك الفراغ.

كل حاسة من حواسه فقدت شيئًا، وكل لحظة من لحظاته فقدت شيئًا، وكل مكان يغشاه فقد شيئًا، وكل سرور من مسراته أو كل ألم من آلامه فقد معناه وغايته ولبابه، وماذا عوضها جميعاً؟ .... عوضها نقيضها الذى يلغيها ولا ينوب عنها، فإما غم محبوس كظيم وإما حيرة عمياء ليس لها اتجاه، وإما سكون موحش بعد حركة وجيعة، وكل أولئك فى فراغ فارغ لا مبدأ له ولا نهاية ولا مهرب فيه ولا قرار.

خوى الجحيم الحىّ وهبط فى مكانه الزمهرير الميت! وبئس هذا الموت وبئست تلك الحياة!

زمهرير لا يعيش فيه الأحياء! ولكنما هو زمهرير خاص للتعذيب لا لمأرب غير التعذيب، لهذا يعيش فيه من يعيش من الأحياء!

وجرب السلوى، وما خامره الشك فى أنها علاج مطلوب، وأنها علاج مستطاع

ولم لا يكون مستطاعًا أن يسلوا الرجل امرأة بامرأة مثلها أو أفضل منها؟ ألا يسلو الجائع عن صحفة من الطعام بصحفة مثلها أو أشهى منها؟ فلماذا يعييه أن يسلو عن المرأة بغيرها من بنات حواء.

ونسى همام أنه ليس بجائع وإنما هو عليل مسلوب الاشتهاء .. فمن حاجتــه قبــل أن ينظر فى انتقاء طعامه أن يعيد ذوقــه إلى اعتداله وأن يجد اللذة فيما يشهيه، ويســتوى عنده قبل ذلك أطيبُ الطعام وأخبث الطعام، كما يستوى الأكل والصيام.

بل نســى أن الرجل حين يحب المرأة فإنمــا يريدها هى ولا يريد ما هــو أجمل منها، وإنما يحبها ويحس بها لأنها هى هى لا لأنها امرأة لا فارق بينها وبين سائر النساء.

وكالنظارة التى تجلو العين لأنها نظارتها تكون المعشــوقة للعاشــق الذى عاشــرها وألف محاســنها وعيوبها، وتمثل كل صفة من صفاتها كأنها شــخص مستقل «مخصوص» لا مشابهة بينه وبين الصفات عامة. فلا النظارة التى هى أبعد أمداً وأنفس زجاجاً تغنى العين التى تنظر بما دونها، ولا المرأة التى هى أجمل طلعة وأكرم ســليقة نعنى القلب الذى تعود أن يخفق لها أو يخفق معها.

لا بل تكون التســلية هنا أحجى بأن تنكأ الجرح وتضاعف الحســرة وتضرم لوعة الفقد والغيبة، فالمرأة المجهولة تغنى عن المرأة المجهولة لأنك لا تعرف لها صفة تنكرها عند أختها... أما المرأة التى «تشخصت» فى حسك كل صفة من صفاتها فكيف ترى امرأة غيرها دون أن تشعر فى كل لمحة وكل لمســة أن لها وجهًا غير وجه فلانة، وعينًا غير عينها،

وصوتـاً غير صوتها، وقواماً غير قوامها، وأعطافًا غير أعطافها، وروحًا غير روحها، وكلامًا غير كلامها؟

وكيف تشـعر بذلك دون أن تنقلب التسـلية غُصَّة، ودون أن ينقلب العوض المنشود ذريعة من ذرائع الفقد الدائم والحرمان المتجدد؟

كلا! لا تسلية عن «النظارة» المضبوطة بنظارة أنفس منها وأقدر على التقريب والتوضيح.

ولا تسـلية عن الابن الضائـع بابن من صلب غـيرك ولا من صلبك، ولـو كان أبـر الأبناء الذين ولد الآباء، ولا تسـلية عن المرأة المعشـوقة بامـرأة تفوقها ملاحـة وتبرعها ذكاء، وتبذها عنـدك وعند غيرك فى بعض الخصال ولا فى جميع الخصال.

وفى الحب كثير من بقايا الطفولة وتراث الغريزة، فلا بدّ للقلب من فترة طويلة أو قصيرة يعاف فيها كل هوى غير هواه، كما يعاف الطفل كل ثـدى غير ثديه، أو يعـاف الطير كل أليف غـير أليفه، أو يعاف الحيوان كل سكن غير سكنه بين أمه وأبيه.

* * *

فـى هذه الفـترة عاد «أمـين» إلى القاهرة بإجازة طويلـة. ورأى من الأمسـية الأولى التـى قضاها مع همام أين تقف الأمـور كما يقول بغير حاجة إلى إفاضة شرح وإطالة سؤال.

الحقيقة غير معروفة والسلوى غير ميسورة، والوقت ثقيل كسيح لا يخف ولا يتحرك! وكل وسيلة يقطعانه بها لا تلبث أن تمسه قليلا حتى تتثلم وتكل وترتد عن صفحته الكثيفة وجلده الصفيق، فالقراءة لا تنفع، واللعب لا يمنع الذهن أن يشرد ويتيه. والسماع لا يطاق، والرياضة مطلوبة مستحبة على أن تكون فى غير الأماكن التى كان يطرقها همام وسارة. وهل من مكان لم يطرقاه؟

وكثر التحدث عن الجنون والمجانين وبوادر الهوس التى تصيب العقلاء من حيث لا يعلمون ولا يعلم أصحابهم المقربون.

فكان همام يقول: ما أحسب إلا أننى سأكون بين الناس فى بعض الأيام فأخلط بالحديث عن سارة وظنون سارة! ثم يسأل أميناً: ترى كيف تقع هذه المفاجأة فى فلان وفلان؟ وكيف يكون هذا الخلط لو كان؟!

ثم يأخذان فى التمثيل والمحاكاة كأنهما يتلهيان ويتفكهان، وإنهما لفى مرارة سقيمة تفسد جميع الطعوم!

هذا أو يعمد أمين إلى فنون من الألاعيب الصبيانية ينفى بها الملل ويموه بها الكآبة. فيدق التليفون ويجيبه الرجل المقصود أو غير المقصود. فيجرى بينهما حديث كهذا الحديث.

- هل أنت فلان؟

- نعم أنا هو

- أواثق أنت مما تقول؟

– عجبًا . ما معنى هذا السؤال؟

– عفـواً يا سـيدى عفواً .. إنما أردت أن أتحقـق من صواب عاملات التليفون . فهل عندك الرقم المطلوب بعينه؟

– نعم يا سيدى . هل من خدمة؟

– بل سؤال صغير إن سمحت!

– تفضل.

– أرجو أن تجيبنى ولا تستغرب . هل قرأت صهاريج اللؤلؤ؟

– صهاريج اللؤلؤ؟ ما هذا؟

– أى نعم صهاريج اللؤلؤ للسيد توفيق البكرى. ظننتك قد سمعت به .. أما سمعت به؟ أما قرأته؟

– بلى قرأته. فما هذه الأسئلة العجيبة؟

– إذن تقرأه مرة ثانية!

ثم يلقى السـماعة، ويمضى فى تخيل فلان هذا وهو يغضب ويصخب وينعـى على مصر والمصريـين هذه الفصول التى لا تحـدث فى باريس ولا لندن ولا برلين!

صبيانيات من هذا القبيل تشـغل الوقت ويندر جدا أن تغصب هماماً على ضحكة أو ابتسـامة، إلى أن كانت ليلة من هذه الليالى المتشـابهات طال فيها السـأم ونزر فيهـا الكلام ورانت فيها الكآبـة، فقال أمين: ما الرأى فى استئناف الرقابة؟

ولعله قالها لفتح باب من أبواب السمر، أو لعله قالها لدفع السآمة، أو لعله قالها شوقا إلى إتمام عمل بدأ فيه وكبر عليه أن يتركه بغير نتيجة .... إلا أن هماما رحب باقتراحه وحاول أن يجدَّ فى معارضته كى يمهد لأمين طريق التراجع إن كان قد تعجل أو بدر منه ذلك الاقتراح تزجية للوقت وجذبًا لأطراف الحديث، فلم تسعفه أسباب المعارضة ولم يسعه إلا الموافقة، وهو لا يدرى من فائدة لاستئناف الرقابة إلا أنه عمل لن يزيده تعبًا على تعبه، وقد يريح.

وبدأت الرقابة بكرة وقد تدرب عليها أمين من جهة، وتهيأت دواعيها من جهة أخرى، وعاونتها المصادفات من جهة ثالثة فنجحت بعد محاولة طويلة نجاحاً كان جديراً بعناء المحاولة، لأنه أراح هماماً وأراح أميناً وصوب الضربة إلى رأس الأوهام واللواعج والمعاذير فقضى عليها.

عاد أمين من رحلته ذات يوم متهللا مسرعًا يتكلف الحزن والأسف تكلف الناعى الذى ينقل أخبار الوفاة إلى وارث مدين يتنازعه الحزن والسرور

قال همام: خير ...

قال أمين: خير، كل الخير ...

ولولا احتراسه أن يصدم صديقه بالنبأ السعيد المشئوم لصاح صيحة «أرخميدس» ..... وجدتها . وجدتها ! ... وحق له أن يصيح، فقد كان يمتحن زيفًا دقيقًا لا يقل عن الزيف الذى امتحنه الرياضى العظيم!

وسرد القصة بتفصيلاتها عملا بالوصية الأولى، وإن لم يكن همام بالحريص في هذه المرة على التفصيلات، وبعد أن نجحت الرقابة وظهرت النتيجة.

وفحوى القصة أنه تبع سارة من منزلها حتى نزلت في ميدان باب الحديد. فمشت أمام ومشت وراء، ودارت بعينيها فيما حولها ترود الطريق وتتوقى الأنظار، فأطل رجل من سيارة كانت واقفة بالانتظار وأشار إليها. فانفتلت إلى السيارة في سرعة البرق، وتبين أمين الرجل بثيابه وسيماه...

قال همام: وهل تبعت السيارة؟

قال أمين: لا. فقد غابت عن النظر قبل أن أدركها بسيارة أخرى.

قال همام مستضحكاً جذلا ليصرف عنه أسفه المصطنع ويسرى عنه ندامة هذا الفشل الصغير، ويسره بنتيجة تعبه: أحسنت يا سيد أمين، أحسنت! قد وصلنا. وصلنا وإن لم نصل إلى باب الدار. فاستمر على بركة كوبيد!

* * *

وانقضت أيام في مثل حالة المفجوعين الذين اطمأنوا إلى موت فقيدهم في ديار الغربة ولم يبق إلا أن تصل الجثة إلى مقرها الأخير بعد سنوات من وقوع المصاب: لا حدة ولا حداد ولا حرارة في الانتظار. بل مسايرة للأيام والحوادث إلى أن تنتهي حيث يروقها الانتهاء.

ففى بعض هذه الأيام كان همام يركب الترام قبل الموعد بنحو الساعة إلى حيث يلقى أميناً - عشاء كل يوم - بعد رحلته اليومية المعهودة. فإذا بأمين يقفز إلى جانبه والترام سائر على أقصى سرعة.

فنسى همام ما كانا فيه ولم يذكر إلا نوادر أمين فى الخوف من ركوب الترام والنزول منه وهو سائر. فليس أظرف من سهواته المحفوظة إلا نوادره فى خوف الترام والمركبات والزوارق وكل ما يسير ويُخشى من سيره الهلاك. فقد ولع به أصحابه من جراء ذلك وتعقبوه بالمناوأة والمحاورة عسى أن يقلع عن خوفه فما أقلع .... وآخر نوادره فى هذا الباب كان فى خلال ذلك الأسبوع، وكان هو وأصحابه يغادرون حديقة الحيوان وهم يوهمونه أنهم سيركبون الترام الذى يهم بالمسير، ويتباطأون لقلة اكتراثهم أن يركبوه وهو سائر. فأسرع قبلهم ليدركه قبل أن يتحرك. فتركوه ووقفوا ينظرون إليه وينظر إليهم وهو لا يجسر على النزول!

وأبى أمين أن يقنع بهذا فى أضاحيك يوم، فزاد عليه أضحوكة أخرى من سهواته وبدواته: مضى مع الترام إلى آخر الخط ثم قضى فى البحث عن أصحابه بقية الظهيرة، وقد كان فى وسعه أن ينزل فى المحطة التالية ويركب معهم القطار الذى ركبوه .. ولكن الرجل سخى بسهواته ومخاوفه لا ينفق منها بحساب!

ذكر همام هذا حين رأى المعجزة التى ما رآها قط ولا توقعها ... وعلم أن أمرًا خطيرًا لا بد قد جرى فى الدنيا وقفز بأمين تلك القفزة

النادرة، بل تلك القفزة المقطوعة النظير! ولا شك أن الضحك الذى سرى تلك الساعة إلى خاطر همام قد كان بطانة ناعمة وثيرة نسجتها المقادير ليتلقى عليها الخبر المشئوم الميمون، المترقب بنافد الصبر ونافد الحيلة منذ شهور، وقد كان له شأن أى شأن فى تهوين المسألة كلها وتلطيفها وإفراغها فى مرحلتها الأخيرة فى قالب السخر والفكاهة.

فلما جلس أمين إلى جانب همام لم ينتظر سؤال ولم يأبه للضحك الذى كان يلوح على عينى همام، وقال فى رصانة وتؤدة: انتهت مهمتى!

قال همام: لا ريب فى ذلك. فإن قفزتك وحدها لدليل أقوى من كل دليل. فأوجز يا صاح. أوجز ولا ضرورة للتفصيل...

قال أمين: الآن هى فى مخدع مريب فى بيت قريب، تبعتها إليه وعرفته وعرفت اسم صاحبه الذى يستأجره، وعرفت أنها تغشاه من حين إلى حين.

فلم يزد همام على أن أغمض عينيه هنيهة. أغمضهما كأنه يتحاشى النظر إلى سبة شائنة، أو كأنه يتهيأ للراحة بعد سهاد طويل فى ارتقاب خبر مكتوم مضنون به عليه.

ثم أسرع فصافح أمينًا وهز يده هزة الشكر والرضا والابتهاج، وقال له: صدقت صدقت، لقد انتهت المهمة، فهلم نحتفل بتشييعها!

ونشط كلاهما نشاطًا لم يدريا ماذا يصنعان به وكيف يجريانه فى مجراه، فانطلقا إلى أطراف المدينة يمشيان بل يغذان السير على

غـير هدى، وطفقا يطوفـان ويعودان إلى حيث كانا حتـى صادفا اثنين من أصحابهما الأدباء يلتمسـان السهر ولا يتفقان على مكان، فانساقوا جميعًا إلى نادٍ متطرف على هامش الصحراء، وكانت الليلة مقمرة والجو رائقًا والسيارات ذاهبة آيبة في خفة وطرب واشتياق.

ويتم التوفيـق فيكون أحد الأديبين صاحبنا الذى كان أمين يختلق له الأسئلة فى التليفون، ويتم التوفيق مرة أخرى فيجرى الحديث فى الأدب وفـى النثر البليغ وفى صهاريج اللؤلؤ... أى نعم فى صهاريج اللؤلـؤ بعينها، ويقول صاحبنـا: لقد قرأته مرتين! ويوشـك أمين وهمام أن يسـألا: أكان ذلك بعد نصيحـة التليفون؟ ولكنهما يكتفيان بالإيماء ويحبسان الضحك، ويضيفانه إلى حساب السرور الخفى الذى يحتويانه منفردين.

فيم كان ذلك السرور؟

لعله كان سـروراً بتقليم مخالب العذاب التى كانت تنوشـه من كل جانب وهو ملقى بينها عاجز عن النجاة منها.

ولعله كان سرور الرضا بتحقيق الظنون وانقطاع الشكوك.

ولعله كان سرور القدرة على التفريط فى سارة بغير لاعجة من حسرة ولا خالجـة من ندم.. أو لم تعد امرأة من النسـاء بعـد أن كانت المرأة «المخصوصة» بعاشـق واحد دون سائر الرجال؟ ألم تنقشع عنها سرابيل الحـب الأثير التى كانت تغليها وتعلو بها فى ضمير همام؟ ألم يسـقط

عنها «سحر» الانفراد الذى جعلها محبوبة لا تغنى عنها واحدة ممن يحملن عنوان النساء؟

بلى! كان ذلك أكبر ما سرَّ همامًا فى تلك الليلة بما سمع من «بشارة» أمين، وظل على سروره هذا أيامًا يترشفه ويكرع منه ولا يروى منه بالجرعة والجرعتين، وصفا له شعور الراحة والسكينة برهة لا ينساها بقية أيامه، فلم يرنقها عليه كدر ولا ألم من نكسات الداء القديم، ولم يكد يشعر أن للداء القديم رسيسًا باقياً إلا حين انقضت إجازة أمين وودعه صباح يوم للذهاب إلى عمله، فقد كانا معًا كالسائحين فى طريق واحد معروف المعالم والأنحاء لهما على السواء، فلما افترقا أحس همام كأنه قد ضل الطريق، وألح عليه هذا الإحساس المبهم بضعة أيام، ثم تراجع رويداً رويداً إلى رضوان صحيح، أو رضوان يقنع نفسه بأنه صحيح.

إلا أن كوبيد شيطان مريد له لؤم الشياطين ونزغاتهم ومكايدهم وكراهتهم أن يتركوا الناس هادئين وادعين، فمن حين إلى حين كان همام يسمعه يهجس له ويوسوس فى صدره ليسلبه ارتياحه إلى فراق سارة وقدرته على تناسيها، فلا يفتأ يعاوده أبداً بهذا السؤال:

أليس من الجائز أنها وفت لك فى أيام عشرتها واستحقت وفاءك لها وصيانتك إياها وغيرتك عليها؟ أليس من الجائز أنها يئست منك فزلت بعد الفراق؟!...

فهرس

صفحة

مقدمة (أو قصص عن قصة) ٧
أهو أنت؟..... ١٣
موعد ٢٢
الشكوك ٣١
علاج الشك ٤٢
الرقابة ٥٥
وكيف الرقابة؟ ٦٥
مضحكات الرقابة ٧٠
القطيعة ٨٠
من هي؟ ٨٧
وجوه ١٠٢
كيف عرفها ١١٠
أيام ١٢٤
لماذا هام بها؟ ١٣٢
حبان ١٤٤
لماذا شك فيها؟ ١٥١
جلاء الحقيقة ١٥٩